رسالة المسجد

مجلة محكمة تصدرعن وزارة شؤون الدينية والأوقاف - الجزائر

الدكتور محمد عيسى
وزير الشؤون الدينية والأوقاف
المدير العام مسؤول النشر

رئيس التحرير: الدكتور نور الدين محمدي، مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني
مستشار المدير العام: السيد حميد رمضة، المفتش العام.
أمانة التحرير: أ . سميرة مخالدي ، أ . بلال سعيدان
إطاران في المديرية الفرعية للتوجيه الديني والنشاط المسجدي

هيئة التحرير

- أ. د . محمد يعيش،عميد كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.
- أ. د . عمار طالبي، باحث جامعي.
- أ. د . عبد الله بوخلخال، باحث جامعي.
- أ. د . مصطفى باجو، باحث جامعي، غرداية.
- د . موسى إسماعيل، باحث جامعي، جامعة الجزائر.
- أ. محمد شيخ، مفتش مركزي.

المحتويات

- الافتتاحية/ السيد الوزير — د. محمد عيسى — 3
- ملف العدد:

المقاصد التربوية للتصوف ودورها في إصلاح المجتمع — د/ مباركة حاجي — 13

المضامين التربوية الروحية للتصوف الإسلامي
قراءة تحليلية للدلالات الاصطلاحية للتصوف الإسلامي — قول معمر — 29

التنشئة الروحية للطفل الجزائري في الكتاتيب — حيزية كروش — 63

دار الحديث بتلمسان ودورها في نشر القيم الروحية — د. راضية بن عريبة — 74

الوظيفة التربوية لفكر ابن باديس ودورها في إحلال السلم — د. بن دنيا سعدية — 83

- خطبة العدد:

خطبة عيد الفطر 1439 - 2018 — 117

الكلمة الافتتاحية لمعالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف، الدكتور محمد عيسى في ملتقى الأمن الفكري

الحمد لله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أيتها السيدات الفضليات:

أيها السادة الأفاضل:

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته؛

يسعدني أن أقف أمامكم لأحييكم وأرحب بكم جميعا وأحضر معكم فعاليات هذا الملتقى المبارك إن شاء الله الذي يتمحض لدراسة موضوع هام ألا وهو الأمن الفكري؛ هذا المصطلح الذي أصبح يحتل - كما تعلمون - مكانة معتبرة في الفضاء السياسي والثقافي للمجتمعات الحديثة؛ فقد عقدت له ملتقيات ووضعت فيه بحوث ودراسات؛ تؤكد كلها أنه مفهوم شامل متعدد الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعقيدية والسياسية! وليس أدل على ذلك من التعريفات الكثيرة التي وضعت لهذا المصطلح ولعل أكثرها شمولية ودقة ذلك التعريف الذي يرى بأن الأمن الفكري هو الانسجام القائم بين ما يؤمن به المجتمع وبين ما يعيشه وما يتطلع إليه! ومن الواضح أن هذا التعريف ينطوي - كما تلاحظون - على العديد من المعاني والحقائق، وأولى هذه الحقائق استناد الأمن الفكري إلى مرجعية عقيدية ثقافية واحدة يؤمن بها المجتمع على تعدد نسيجه الثقافي والسياسي والاجتماعي؛ تتفرع عن هذه المرجعية منظومة قيم يقدسها الجميع

ويجسدها الجميع في السلوك الفردي والجماعي؛ مما يحقق التماسك والوحدة؛ لهذا المجتمع الذي يعيش عند ذلك بشكل صحي التعدد والتميز في إطار هذه الوحدة الجامعة؛ التي تقيه من كافة أنواع الصراع العرقي أو الطائفي أو المذهبي، ومن كل ألوان التعصب والتطرف والإكراه والعنف؛ وهذا ما يجعل تحقيق هذا الأمن الفكري مسؤولية المجتمع بكل مؤسساته التي تساهم في تشكيل الذهنية وصناعة الرأي العام وبث الوعي والحس المدني وتوجيه السلوك الفردي والجماعي؛ لأن الأمن الفكري هو أن يحس كل فرد في المجتمع بأن منظومته الأخلاقية والقانونية والفكرية التي تنظم علاقاته بمجتمعه وبدولته هي منظومة متماسكة متناسقة غير مهزوزة ولا مضطربة؛ ومعنى هذا كله أن صيانة مختلف مؤسسات المجتمع من الانحراف، بسبب تعدد مصادر التلقي، أو تعدد المرجعيات هو أمر أساسي لضمان هذا الأمن الفكري؛ لأن المجتمع الذي تصطدم مشاريعه عموما بمنظومته الفكرية والأخلاقية التي تثمرها مرجعيته العقيدية، من شأنه أن يعرف توترات وهزات تؤدي إلى الاغتراب عن الذات، وإلى التطرف والعنف!

هذا، باختصار شديد، ما يقوله الفكر الإنساني الوضعي بخصوص هذه القضية ذات الأهمية البالغة في حياة المجتمع العصري، فما هو منظور الإسلام لهذه المسألة، باعتباره منهاجا ربانيا شاملا كاملا لحياة الأفراد والجماعات والأمم؟!

كلنا يعلم – أيها السادة الأفاضل – أن الإسلام جاء أصلا ليحافظ على الكليات الخمس، وأولها العقيدة؛ الدين، ومعنى ذلك بالنسبة لمجتمع يدين بالإسلام أن اضطراب العقيدة هو اضطراب لكل أسسه التي يستند إليها أمنه بشكل عام، وأمنه الفكري بشكل خاص!

و اضطراب عقيدة المجتمع يبدأ بالطعن في وحدة مرجعيتها أوبالاستهانة بها؛ أي الاستهانة بوحدة مصدر التلقي كما يسميها البعض اليوم، بمعنى أنه عندما تتعدد مصادر التلقي في مجال العقيدة بالنسبة للمجتمع فإن ذلك مؤشر على الاضطراب والتصدع.

و لعل أحسن دليل نسوقه على أهمية الحفاظ على المرجعية الدينية الواحدة الموحدة هو ما جاء في الأثر من أن رسول الله صل الله عليه وسلم غضب حين رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي يده قطعة من التوراة، فقال له: أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟! والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا ابتاعي![1]وهذا ما يجعلنا ندرك سبب نهي رسول الله صل الله عليه وسلم عن الابتداع في الدين والإفتاء بغير علم، لأن ذلك معناه سواد الفوضى في أمور العقيدة وانقيادها للأمزجة والأهواء!

فالمرجعية الدينية هي الأساس إذن؛ فنحن نعلم أن هناك شرطين أساسيين لا تقوم حياة مجتمع بدونهما، وهما الكفاية من العيش والأمن والاستقرار؛ وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم على لسان خليل الرحمن عليه السلام عندما دعا ربه قائلا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[البقرة:125]؛ غير أن القرآن الكريم الذي يفسر بعضه بعضا يخبرنا في آية أخرى أن هذين الشرطين لا يكونان شيئا إذا لم يستندا إلى عقيدة واحدة موحدة، لذلك ربطهما بها مباشرة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝3 الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝4﴾ [قريش: 3 - 4] .

1- أخرجه أحمد في «مسنده» (ص: 3 /387)، وكذا أخرجه الدّارميّ (ص: 1 /115)، وابن أبي عاصم في «السّنّة» (ص: 5 /2)، وابن عبد البرّ في «جامع بيان العلم» (ص: 2 /42).

فالأمن نعمة كبرى وضرورة، بدونه لا تستقيم حياة ولا يتحقق عمران ولا تبنى حضارة، ومن الطبيعي أن يظل مطلبا تسعى إلى تحقيقه كل المجتمعات البشرية؛ بل إن القرآن الكريم يخبرنا أن الأمن نعمة حتى في الآخرة يختص الله بها عباده الفائزين يومئذ برضاه فقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾[النمل: 91]

فليس هناك مجتمع اليوم لا يعلم أنه لا حياة من دون أمن غذائي وصحي واجتماعي، وهو ما أشار إليه حديث رسول الله رسول الله صل الله عليه وسلم «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[2].

فمن الطبيعي أن يعنى الإسلام بهذا المجال الحيوي ويشرع من العبادات ما يساهم في تحقيق الأمن عموما ويحافظ عليه بمختلف هذه الأبعاد؛ عندما تحث على تعزيز الوحدة عن طريق التكافل والتضامن والتراحم والتعاون على البر والتقوى والتزام الجماعة؛ وما إلى ذلك!

أيها السادة الأفاضل:

إن الأمن الفكري في مجتمع إسلامي يعني كما قلنا ارتباط هذا الفكر المجتهد المبدع بالمرجعية الدينية لهذا المجتمع، وانطلاقا من هذا نقول إن أولى علامات اضطراب هذا الأمن الفكري عندما يبتعد عن مرجعية الاعتدال هو بروز ظاهرة التطرف الديني والفكر التكفيري الناتج عن التعصب وإلغاء الآخر؛ هذا الفكر القائم على التأويل الباطل لنصوص الشريعة ولوقائع التاريخ الإسلامي ولنهج السلف الصالح!

و هذا الفكر المتطرف المتصلب ينتعش في فضاء الجهل الذي يحرم من

2 - رواه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم/300) والترمذي في «السنن» (رقم/2346) وقال : حسن غريب .

التمييز بين الخطاب الديني المتطرف الخاطئ وبين الخطاب الديني المعتدل الصحيح.

كما أن هذا الفكر أحادي النظرة قائم على رفض المخالف ولو كان هذا الخلاف في مسألة فرعية لها سندها الفقهي؛ لأنه يرى في هذا المخالف خطرا على الدين تجب محاربته، بل والتقرب إلى الله سبحانه بتخليص المجتمع منه؛ هذا في المسائل الفقهية الفرعية فما بالكم بمخالفته في النظر إلى القضايا المدنية المعاصرة، كالديموقراطية وحقوق الإنسان والمواطنة وما إلى ذلك!

و بناء على ذلك كله يتضح لنا أن معالجة الفكر المتطرف يبدأ بمعالجة ثقافة التطرف نفسها، ثقافة النظرة المتشددة إلى الدين وإلى التراث وإلى التاريخ وإلى الآخر؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بتفكيك أسانيد هذا الفكر المنحرف الخطير وتفنيد مرجعيته وإبطال حجية!

ولقد عرفت الجزائر في هذا المجال أقسى امتحان، مما جعل خبرتها فيه من أوسع الخبرات وتجربتها من أغنى التجارب بالنظر إلى ما عانته من ويلات هذا الفكر الديني المتطرف؛ وما أثمره من إرهاب وحشي فاق كل تصور!

و الذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو أن هذا الفكر المنظر للإرهاب يزعم أن مرجعيته إسلامية؛ وإذا استطاع أن يمتد زمنا في فضائنا فإن لذلك أسبابا عديدة ما تزال محل اهتمام الباحثين المختصين في مختلف مجالات العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية وغيرها؛ لكن الملاحظ - في المجال الديني الذي يعنينا نحن هنا - أن الضعف في بداية مواجهة ظاهرة الإرهاب يعود حسب العديد من الباحثين إلى اكتفاء علمائنا بالإسراع إلى التبرأ منه وتبرئة الإسلام من أعماله الوحشية، دون تعرية كاملة لطبيعة هذا الفكر الدخيل ودون

تحليل عميق لبواعثه، وفضح كامل لهشاشة أسانيده وتفنيد مرجعيته كما قلنا؛ من ذلك على سبيل المثال فقط توضيح مفاهيم الجهاد والاستشهاد والحاكمية والتمكين للدين والأمر بالمعروف والنهي عن لمنكر؛ ومفهوم الولاء والولاية والأمة والآخر، وما إلى ذلك؛ لأن هذا الفكر التكفيري المتطرف يتغذى من إشاعة الفهوم الخاطئة للدين والتأويلات الباطلة لمقاصد شريعته! ويجعل من ذلك كله سنده الشرعي ومرجعيته الدينية، ليخدع بها من لا يملك العلم الكافي للرد عليه وفضحه ورفضه!. و بالفعل، فقد كان الخطاب الديني الانفعالي العاطفي هو الذي ساد أوساط الوعاظ والدعاة وعلماء الدين عموما، ممن تصدوا لهذه الظاهرة بإيمان وشجاعة، وتحملوا مسؤوليتهم في تبرئة الدين منها، لكن معظمهم ركز على التكفير والتفسيق وبيان العقاب الشديد الذي سيلقاه من يفسد في الأرض ويروع الآمنين ويقتل النفس التي حرم الله ويزعزع الاستقرار ويشل حركة الحياة، وكان من الحكمة، بل من الواجب أن ينتهجوا - بموازاة ذلك - أسلوب الاستمالة والتأثير لإنقاذ المغرر بهم وكسبهم بعد إقناعهم بأنهم في ضلال مبين!.

إن اتقاء شر هؤلاء وحماية المجتمع منهم أمر واجب، لأنه حفظ للنفس وللنظام العام ولحياة المجتمع، لكن المخدوعين من هموا المغرر بهم لهم على علمائهم حق النصح والوعظ، فهم وحدهم القادرون على إعادتهم إلى رشدهم، وإقناعهم، بالحجة والبرهان، بأن ما يعتقدونه إيمانا وجهادا والتزاما دينيا إنما هو كفر وفسوق عن أمر الله واعتداء على حدوده وحرماته، ومناقضة لمقاصد الشريعة وانحراف عن قيمه ومبادئه!.

أيها السادة الأفاضل:

إنه مهما تكن نتائج البحوث والدراسات التي ما فتئت تلقي مزيدا من الأضواء على ظاهرة التطرف الديني والعنف والإرهاب في بلادنا، ومحاولة الكشف عن دواعي بروزها، فإن الذي لا شك فيه أن هذه الظاهرة غريبة عن المجتمع الجزائري، وأن مرجعيتها الدينية المزعومة وسنداتها ومرتكزاتها دخيلة وافدة ليس لها أي امتداد في تاريخ الجزائر أو تراثها الفقهي المتراكم عبر العصور!.

و إذن فإن من الحقائق الكبرى التي ينتظر من هذا الملتقى العلمي المبارك أن يجليها بوضوح أن للمغرب العربي عامة وليس للجزائر وحدها، في مرجعيته الدينية المشتركة، وكذا في خصوصيته المذهبية في العقيدة والفقه والسلوك حصانة ذاتية من الغلو والتطرف والعنف والإرهاب؛ يضاف إلى ذلك كله ما رافق تدينه من اختيارات أساسية في قراءة القرآن الكريم وتفسيره وفي رواية السنة النبوية الشريفة وشرحها، وما اجتهد المجتمع العلمي في التأسيس لها؛ كقاعدة استقرار العمل وفقه النوازل والفقه المقاصدي واعتبار المآلات!.

فقد وضع علماء المغرب العربي، الذين خلفوا الفقهاء العشرة الذين بعثهم عمر بن العزيز ليفقهوا أهل هذه البلاد في الدين، مبادئ وأسسا كبرى في الممارسة الدينية اتسمت دائما بالاعتدال والوسطية في العقيدة والفقه والسلوك، فكانت عبر الأجيال صمام أمان يحفظ من الانحراف عن الوسطية والغلو والتطرف والعنف!. فإلى هذه العوامل جميعا يعود سر تماسك المجتمع الجزائري واستقراره فكان على مر الأجيال والعصور مثالا للمجتمع الإسلامي القائم على تنوع النسيج الثقافي واللغوي والاجتماعي في إطار وحدة دينية ووطنية جامعة، لم

يعرف معها أي لون من ألوان الصراع المذهبي أو الطائفي أو اللغوي، ناهيكم من التطرف الديني والعنف والإرهاب.

ولقد هيأ الله له من العلماء من تعهد هذه القيم والأسس والمبادئ، ممن تخرجهم الزوايا العامرة المنتشرة في كافة ربوع الوطن، والتي ظلت منارات للهدى ومراكز للإشعاع العلمي والروحي المستنير بكتاب الله وسنة رسول الله صل الله عليه وسلم وتراث السلف الصالح، أولئك العلماء الذين كانوا محل تقدير المشرق والمغرب على حد سواء لأنهم كانوا حجة في شتى علوم الشريعة؛ مما جعل مجتمعهم يقدرهم حق قدرهم ويزداد بهم ثقة واعتزازا، فظل هؤلاء العلماء على مر الأجيال، رقباء على المجتمع الجزائري يصححون له مساره في التدين نحو الاعتدال والوسطية، ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين؛ ويربطونه بمرجعيته الدينية والثقافية.

و الإشكالية التي يطرحها هذا الملتقى للدراسة والبحث، هي أن هذا النفوذ العلمي الذي كان للعلماء قد انحسر لأسباب وعوامل موضوعية عديدة متكاملة، وخلف ذلك فراغا أغرى المتحدثين باسم الدين ممن ليسوا مؤهلين علميا لذلك، باستيراد مناهج في ممارسته هي أصلح للبيئات التي نشأت فيها وأكثر توافقا وانسجاما مع طباع المجتمعات التي أفتاها علماؤها بمقتضاها؛ بل إن الأمر قد وصل ببعضهم إلى الحد الذي احيوا فيه من بطون الكتب فقها لم يعد صالحا للعصر الذي نعيشه وللمنطق الذي تفرضه طبيعة الحياة فيه؛ وهكذا شاعت فتاوى مهجورة الباعث إلى إحيائها هو حب التميز والصدارة والزعامة؛ وكان من الطبيعي، بل الحتمي أن تتمخض هذه الأفكار الدخيلة عن سلوك متطرف في التكفيروالتفسيق وعن ظاهرة

الإرهاب الذي استباح الدماء واستحل انتهاك الأعراض والفساد في الأرض.

أيها السادة الأفاضل:

إن من الحقائق الكبرى التي ينتظر من هذا الملتقى أن يبرزها كذلك هي أن الفكر التكفيري الإرهابي دخيل على المجتمع الجزائري، كما أسلفت؛ غريب عنه وافد عليه، ليس له أي سند في مرجعيته الدينية والثقافية والحضارية، وليس له أي امتداد في تاريخه القديم أوالحديث، أوأي حضور في تراثه الفقهي المتراكم عبر الأجيال والعصور؛ فالجزائر التي احتضنت الإسلام منذ الخطوات الأولى للرسالة المحمدية، عاشته عقيدة وأحكاما وقيما ومبادئ وآدابا، في عقد الأشعري ومذهب الإمام مالك والتصوف السني الصحيح على طريقة الجنيد السالك مما جعلها تجسد مدرسة الاعتدال والوسطية التي مكنت لفضائل الرفق واللين والتسامح والحلم والتعفف والإحسان إلى الخلق، فتجلى ذلك كله في السلوك الفردي والجماعي للمجتمع الجزائري؛ ليس فقط في حالات اليسر والاستقرار والسلم بل حتى في حالات الاضطراب والحرب التي تمتحن فيها معادن الأفراد والمجتمعات؛ وتبرز ما تنطوي عليه من الفضائل أو الرذائل؛ ولعل أقرب مثال لذلك في تاريخ الجزائر الحديث، مواقف الأمير عبد القادر الإنسانية التي بهرت أحرار العالم، سواء في حسن معاملته للأسرى أو في احترام المعاهدات؛ وكذلك ثورة نوفمبر التي قدمت أروع الأمثلة للأخلاق الإنسانية الرفيعة؛ لأن المرجعية في الحالتين، هي سيرة المبعوث رحمة للعالمين صل الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده، رضي الله عنهم أجمعين، الذين كانوا يوصون جيوشهم بألا يقطعوا شجرة ولا يحرقوا زرعا ولا يروعوا عابدًا آمنا في صومعته، فكيف بإزهاق نفس بغير حق؟!.

و لكن أين الإرهاب الأعمى من هذه الفضائل السامية والأخلاق الرفيعة؟! وأية علاقة تربطه بهذه الذات السامية النبيلة؟

و كيف تكون له أدنى صلة بذلك كله وهو متنكر أصلا لأهداف شهداء ا لجر ا ئر و مجا هد يها و لتضحيا ت المجتمع الجزائري برمته طوال قرن وثلث القرن، من أجل استرجاع عزته وكرامته وسيادته وإقامة دولته على مبادئ الإسلام، الذي به توحد وبه صمد وبه جاهد وبه انتصر؟!.

أيها السادة الأفاضل:

أود أن أشير في الختام إلى أن أحد الأهداف الكبرى المنشودة من هذا الملتقى المبارك هو تقديم اقتراحات عملية من شأنها أن تحصن المجتمع من ظاهرة التكفير، بإبطال مذهبياتها الدخيلة، و من ظاهرة التطرف الفكري والسلوكي؛ وكذا التأسيس لتصور متكامل عن مؤسسات الفتوى ومعاهد تخريج الأئمة والمرشدات الدينيات، وعن المشاركة الإعلامية في القنوات الفضائية المتخصصة وفي الصحف المكتوبة والإذاعة، كما يرسم معالم لدور النشر ومنابر مناقشة الأفكار وغير ذلك مما هو من تجارب الأمم الأخرى أو من هدي التفكير العلمي المنهجي.

هذا؛ وإني إذ أجدد ترحيبي بكم جميعا والإعراب عن سعادتي بوجودي بينكم، أسأل المولى تعالى أن يكلل جهودكم بالنجاح، ليحقق هذا الملتقى المبارك الأهداف المنشود من تنظيمه.

و السلام عليكم

ورحمة الله تعالى وبركاته

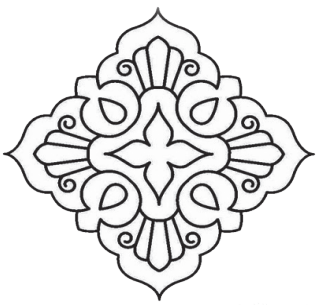

المقاصد التربوية للتصوف ودورها في إصلاح المجتمع

د/ مباركة حاجي
جامعة الجزائر 2 - قسم الفلسفة

مقدمة:

التصوف كما يرى ابن خلدون: علم حادث في الملة شأنه شأن علم أصول الفقه وعلم القراءات وعلم الكلام وغيره له موضوع هو التزكية، طبيعته ذوقية محضة، ومنهجه التربية الروحية، فهو دائر في محيط الدين محكوم بخاصيتين هما: الملاءمة المستمرة بين الذوق وأحواله ومقاماته وبين أصول الدين وضوابطه، فهو جانب من اخصب جوانب الحياة الروحية في الإسلام لأنه تعميق لمعاني العقيدة. واستنباط لظواهر الشريعة، وتأمل لأحوال الإنسان في الدنيا، وتأويل للرموز والشعائر.

لقد حدد الصوفية أن منهاج السلوك الصوفي هو التربية الوجدانية عبر التحقق لمقامات الأخلاق والمجاهدات: كالصمت والتواضع والتوبة والصبر والذكر والتسامح والإحسان في العمل، والجود وبسط الوجه والأمانة والرحمة وإطعام الجائع، وتفقد الجار وصلة الرحم وكلها شعب من شعب الايمان التي طولب بها المسلم.

1 - ضابط الإيمان لصحة السلوك الصوفي:

إن التصوف هو روح الإسلام وتمثل لدرجة الإحسان من الإيمان التي أشار إليها الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم: «الإحسان أن

تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ومقام الإحسان من أعلى مراتب الدين وأكملها ولأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة، وعليه دائرة، إذ لفظه دال على طلب المراقبة الملزومة به، فكان الحض عليها حضا على عينه، كما دار الفقه على مقام الإسلام والأصول على مقام الإيمان، فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علمه جبريل عليه السلام، ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم [1]

و لعل الباحث في التربية الصوفية تستوقفه للوهلة الأولى خاصية ترقية العد الإيماني في الفرد من خلال طبيعة السلوك والرياضات الروحية التي تعتمدها الطرق الصوفية فقد اشتغلت الأذكار والأوراد الصوفية على ترقية البعد الإيماني في الفرد، سواء على مستوى الوجدان أو على مستوى السلوك الإجتماعي، فالصحة الإيمانية المنظور الصوفي تنطلق في تحديد ماهية الإيمان انطلاقا من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة منها: الحديث النبوي الذي ورد في صحيح مسلم، مرويا عن عمر بن الخطاب تعريفا للإيمان قوله صلى الله عليه وسلم **«. . . أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»** [2]

كما نجد في كتب التصوف تعريفات كثيرة للإيمان، تخضع في إيرادها إلى سياقات مختلفة منها ما يروى عن سيد الطائفة الإمام الجنيد (ت 297 هـ)، مثلا جوابه لما سئل عن الإيمان وكانت أجوبته تختلف اختلاف السياق، يقول مرة: **«الإيمان هو التصديق والايقان، وحقيقة العلم بما غاب عن الأعيان. . .»** [3].

و قال في أخرى: **« الإيمان هو الذي يجمعك إلى الله، ويجمعك بالله، والحق واحد والمؤمن متوحد»** [4]

وقال في أخرى: «**هذا سؤال لا حقيقة له، ولا معنى ينبئ عن مزيد من علم، إنما هو الإيمان بالله جل ثناؤه مجردا، وحقيقته في القلوب مفردا، وإنما هو ما وقر في القلب من العلم بالله، والتصديق بما خبر من أموره في سائر سمواته وأرضه، مما ثبت في الايقان، وان لم أره بالعيان**» [5]

و يعرف أبو القاسم القشيري أيضا الإيمان ويميزه عن الإسلام استنادا إلى ما ورد في الآية الرابعة عشرة من سورة الحجرات، فيقول قوله جل ذكره: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ الحجرات: 14 ، الإيمان هو حياة القلب والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس، والنفوس لا تموت ولكنها تغيب، ومع حضورها لا يتم خير، والاستسلام في الظاهر إسلام، وليس كل من استسلم ظاهرا مخلص في سره ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(الحجرات: 14، في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب، كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ البقرة: 10، ومرض القلب والإيمان ضدان [6].

فمحل الإيمان القلب وطريقة تحقيقه كبح أو ذبح النفس وذلك تطهيرها من انحرافها.

لقد حدد الصوفية مرتكزات الإيمان استنادا إلى الحديث النبوي المشار إليه سلفا حول التمييز بين الإسلام والإيمان والإحسان وهو الأكثر تداولا في مقالاتهم، فقد خاضوا في دلالاته، ووقعت الإشارة في أكثر من موضع إلى مرتكزات الإيمان استنادا إليه، فنجد أبو حامد الغزالي قد خصص فصلا في كتابه) احياء علوم الدين (واختار له عنوانا في الايمان والإسلام وما بينهما من الاتصال

والانفصال، وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان، ووده استثناء السلف فيه) وقد عرض في الاختلاف والاضطراب في تحديد دلالات الايمان والإسلام، من خلال استدعاء ثلاثة مباحث أو سياقات مختلفة: «بحث عن موجب اللفظتين في اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأول لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي. . . فموجب اللغة أن الإسلام أعم، والإيمان أخص. . . والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل. . . وللإسلام والإيمان حكمان: أخروي، ودنيوي.. أما الأخروي فهو الإخراج من النار، ومنع التخليد. . . وحكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين، لأن قلبه لا يطلع عليه، وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منظور عليه في قلبه.» [7].

و يضع صاحب الإحياء ثلاث مستويات للإيمان « **عقدا وقولا وعملا**» [8]، ثم ينتهي إلى استنتاج مفاده أن الإيمان « اسم مستدرك يطلق من ثلاثة أوجه: الأول: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف، وانشراح صدر، وهو إيمان العوام، بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص. . الإطلاق الثاني: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف، وانشراح الصدر، والمشاهدة بنور البصيرة» [9].

ويقيم أبو حامد نوعا من المفاضلة بين مراتب الإيمان، العليا لأهل الطريق وتبنى على اليقين والكشف والتقليد، وهذا التفاضل بين درجات الإيمان نجده دارجا بين مصنفات أهل

الطريق، نأخذ مثالا آخر يقوم على ثنائية في تعريف الإيمان حيث يقول السراج الطوسي(ت 378هـ) في تعريف الإيمان الإيمان ظاهرا وباطنا [10]

إن الإيمان في عرف الصوفية تجربة تعاش وليست إقرارا باللسان واعتقاداً بالقلب فحسب، فلا كمال للإيمان إلا متى تعلق بالعمل، يقول القشيري في هذا الباب: «حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق، وموجب الأمرين التوقيف، والتصديق بالعقل، والتحقيق ببذل الجهد في حفظ العهد، ومراعاة الحد، فالمؤمنون هم الذين صدقوا باعتقادهم، ثم الذين صدقوا في اجتهادهم» [11]. المؤمنون متفاوتون في بلوغ درجات الإيمان وهذا ما يؤكده سفيان الثوري 97 هـ- 161 هـ (في قوله: « الإيمان يزيد، والناس عندنا مؤمنون مسلمون، لكن الإيمان متفاضل، وجبريل أفضل إيمانا منك " [12]. وتجدر الإشارة هنا إلى الجدل الكلامي الذي لم يكن الصوفية بمنأى عنه وفي هذا الموضوع، حيث تنتهي أغلب آراء أهل الطريق في مسألة الإيمان إلى ما انتهى إليه الإمام الأشعري 260هـ324-هـ الذي يعرف الإيمان بقوله: «.. هو التصديق بالجنان، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه، فمن صدق بالقلب: أي أقر وحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى صح ايمانه، حتى لو مات عليه في الحال كان مؤمنا ناجيا، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكارشيء من ذلك [13].

لقد كان تصور السادة الصوفية وقناعتهم تفاضل درجات الإيمان، دافعا لوضع ضواط للتجربة الإيمانية والتعددية وانتهوا الى تحديد شروط لبلوغ درجة الإيمان الكامل المنشود.

2 - البعد المقاصدي للتصوف:

إذا كان التصوف هو لب الدين وتمثيل لأعلى درجات الإيمان ونقصد بها الإحسان فلا غرابة إذا قلنا أن البعد المقاصدي للتصوف لا يغدو أن يكون تمثيل لروح المقاصد الشرعية في أعلى مراتبها، ذلك، أن حفظ النفس وحفظ المال، وحفظ الدين وحفظ العرض تغدو منطلقات وثوابت يعمل التصوف بطريقه عملية على تموضعها بتحقيق الحاكمية الإ لهية، عبر السير في طريق السالكين إلى الله، الذين يجعلون حب الله الغاية والوسيلة في نفس الوقت، من خلال تحقق مقامات الأخلاق والمجاهدات وتحقيق مظاهر التربية الروحية على أن الاكسير الفعال الذي يقوم عليه طريق السالكين وتتمحور حوله درجة الإحسان من الإيمان هو الحب الذي هو جوهر التصوف وسمته الكبرى، فقد اعتبر التصوف عمليا من حيث أنه يرتبط بالمجاهدة والرياضة والأحوال والمقامات، فقد ظهر التصوف كعلم أخروي يعطي المفهومات الجامدة من تحليل وتحريم روحا جديدة ويمزجها بالعاطفة الدينية المؤسسة على أعمال القلوب من مقامات وأحوال، وتنحصر هذه الأعمال في التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والشوق والوجد وغيرها من أحوال الصوفية ومقاماتهم [14]. لقد كانت وظيفة التصوف أن جعلت الرياضة الروحية طريقة ومنهجاً متسقاً، فهو كل ما يتعلق بأعمال الباطن المتعلق بأعمال القلوب ما يطرأ عليها من تقلبات، ودورها في استقامة الظاهر من أعمال الإنسان المشروطة باستقامة أعمال الباطن، « **فالإيمان رأس الأعمال وأرفع مراتب السعادة لأنه أرفع الأعمال الباطنة كلها**» [15].

ذلك لأن جميع التكاليف الشرعية التي تعبد بها الإنسان في خاصة نفسه ترجع إلى نوعين: «**أحكام تتعلق بأعمال الظاهر وهي أحكام العبادات والعادات والمعاملات وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة وهي الإيمان وما يتصرف في القلب ويتلون به من الصفات**» [16]، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» ولذلك صار فقه الشريعة على نوعين: فقه الظاهر وهو معرفة أنفسهم أو ما يجمعهم من عبادات وعادات وغيرها وما يخص المكلف في نفسه من أعمال الجوارح في عبادته وتناوله لضروراته ويسمى هذا فقه القلوب [16]. ويعتبر فقه الباطن أهم في الدين الاسلامي من فقه الظاهر لأنه الدعامة التي يستقيم بها الظاهر « لأن نظر أفقيه في العبادات التي رأسها السلام إنما هو من حيث انها هل تصح فتكون مجزية ويقه بها الامتثال، ويسقط القضاء وكذا نظره في الحلال والحرام انما هو من حيث أنه تصرف في مال الغير فهل ينتزع في درء المستحق شرعا أم لا، وما يترتب على ذلك من آثار سقوط العدالة أو ثبوتها وهذه كلها أمور دنيوية... والمتصوف ينظر في ذلك كله من حيث أنها حزازات القلوب ومؤثرة في الاستقامة التي هي أصل النجاة فيرى أن الصلاة لما كانت عبادة وأصلها التوجه بالقلب فإنه يبقى منها زاد للآخرة ما حصره القلب لا ما غاب عنه لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن الرجل ليصلي الصلاة ليس له نصفها ثلثها أو ربعها... إلى عشرها**» [17].

لقد حث السادة الصوفية في تراثهم الفكري على الوقوف عند النواهي والمحرمات والواجبات والأوامر من

حيث اقتضائها أقسام الحكم، واعتبار جلب المصلحة ودرء المفسدة المنبثقة عن امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فلا فرق بين مندوب وواجب أو مكروه أو محرم، «و هذا الاعتبار جرى عليه أرباب الأحوال من الصوفية ومن حذا حذوهم من طرح مطالب الدنيا جملة وأخذ بالحزم والعزم في سلوك طريق الآخرة إذ لم يفرقوا بين واجب ومندوب في العمل بهما ولا بين مكروه ومحرم في ترك العمل بل ربما أطلق بعضهم على المندوب أنه واجب على السالك وعلى المكروه أنه محرم وهؤلاء هم الذين عدوا المباحات من قبيل الرخص» [18].

لقد نظر الصوفية إلى معنى الأمر والنهي من زاويتين:

1 - « النظر إلى قصد القرب بمقتضاها فإن امتثال الأوامر واجتناب النواهي من حيث هي تقتضي التقرب من المتوجه إليه كما أن المخالفة تقتضي ضد ذلك.

فطالب القرب لا فرق عنده بين ما هو واجب وبين ما هو مندوب لأن الجميع يقتضيه حسبما دلت عليه الشريعة كما أنه لا فرق ين المكروه والمحرم لأن الجميع يقتضي نقيض القرب وهو إما البعد وإما الوقوف عن زيادة القرب والتمادي في القرب هو المطلوب» [19].

2 - « النظر إلى ما تضمنته الأوامر والنواهي من جلب المصالح ودرء المفاسد عند الامتثال وضد ذلك عند المخالفة. فإذا كان التفاوت في مراتب الأوامر والنواهي راجعا الى مكمل خادم ومكمل مخدوم وما هو كالصفة والموصوف فمتى حصلت المندوبات كملت الواجبات وبالضد فالأمر راجع إلى كون الضروريات آتية على أكمل وجوهها فكان الافتقار الى المندوبات كالمضطر إليه في أداء الواجبات تزاحمت المندوبات والواجبات في هذا

الوجه من الافتقار فحكم عليها بحكم واحد [20].

3 - اجتناب الأخذ بالرخص واختيار العزائم

و هذا ما درج عليه أهل الطريق، في ترك الرخص وتحمل المشاق واجتناب البطالة والكسل ومخالفة النفس والهوى.

و هذا ما أشاد به الشاطبي أهل الطريقة في قوله: « **ولأجل هذا أوصى شيوخ الصوفية على مذهبهم بترك اتباع الرخص جملة وجعلوا من أصولهم الأخذ بعزائم العلم وهو أصل صحيح مليح مما أظهر من فوائدهم رحمهم الله**» [21].

و هذا ما نوه به صاحب كتاب «**قواعد التصوف**» الشيخ زروق الفاسي (846_899) بقوله «نظر الصوفي للمعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط من الحرج، والصوفي يعتبر ما يحصل من الكمال» [22].

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالعزائم وركبوا طريق المجاهدة تصفية القلوب وإعمارها بحب الله. وارتضوا لأنفسهم طريق التزكية. يقول الشاطبي مشيرا إلى طريقتهم فإلف الشيء والاعتياد عليه يحول الصعب الشديد إلى الميسور المحتمل ودليل ذلك ما يأخذ به أرباب الأحوال أنفسهم من رياضات ومعالجات تصير الشاق وغير المعتاد عند غيرهم إلى مألوف ومعتاد عندهم وهو ليسو بدعا في ذلك بل لهم أصل يستندون إليه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (البقرة -آية: 45) حيث بين الله عزوجل أن الصلاة كبيرة على المكلف واستثنى الخاشعين الذين كان أمامهم رسول الله عليه الصلاة والسلام فهو الذي

كانت قرة عينه الصلاة حتى كان يستريح إليها من تعب الدنيا ويقول: «**أرحنا بها يا بلال**» [23]. وقام بها حتى تورمت قدماه، فإذا كان كذلك فمن خص ورثته في هذا النحو نال من بركة هذه الخاصية. [24]

لقد كان حب الله عزوجل المنطلق والغاية عند أهل الطريق فأصبح الشاق سهلا والبعيد قريبا والمصعب ميسورا، إذ جعلوا ديدنهم وأقصى أمانيهم رضى المحبوب عزوجل، حيث يقول فإننا ندرك ونشاهد أنه قد يكون للعامل المكلف حامل على العمل حتى يخف عليه ما يثقل على غيره من الناس وحسبنا من ذلك أخبار المحبين الذين صابروا الشدائد وحملوا أعباء المشقات من تلقاء أنفسهم من إتلاف مهجهم إلى ما دون ذلك وطالت عليهم الآماد وهم على أول أعمالهم حرصا عليها واغتناما لها وطمعا في رضا المحبوب واعترفوا بأن الشدائد والمشاق سهلة عليهم بل لذة لهم ونعيم وذلك بالنسبة إلى غيرهم عذاب شديد وألم أليم وعلى هذا الأصل يتخرج كثير من كبار الصوفية بل ومن كبار الصالحين والصحابة والتابعين [25].

3 - حاجة المجتمع اليوم إلى التربية الصوفية:

إن الزمن زمن الفترة والركون إلى الدنيا والتنافس على قشورها الفانية، فلقد امتاز عصرنا الحالي بكثرة الأزمات النفسية والأخلاقية بامتياز، فهو عصر الشهوة والانحراف والنزوة والفراغ الروحي، وقد آن لأصحاب الرقائق من الشيوخ الربانيين من أهل الطريق أن يساهموا في إعادة الاعتبار للتربية الروحية وتزكية النفوس لإعادتها إلى فطرتها فينبغي أن يكون للتصوف وأهله الربانيين الحقيقيين دور في إعادة الدعوة إلى الله وتزكية النفوس

وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن، ومواجهة الاجتياح الكبير لقيم غريبة عن الاسلام وصفاته إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حل لها فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء، ونهامة المال العمياء والأمراض الاجتماعية والخلقية، والمثقفون - الثقافة الدينية أو المدنية - فريسة الحرص على الحياة والمنصب والأمراض الباطنية من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب الظهور ونفاق ومداهنة، وخضوع للمادة وللقوة. . . ولا علاج لكل ذلك إلا في (التزكية النبوية) التي نطق بها القرآن وبعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي الربانية التي طولب بها العلماء. . . لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي يشغله الدعاة إلى الله. . . تربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها وصلتها بالله، والدعوة إلى صلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع [26].

إن صلاح المجتمع ينطلق من استقامة الفرد كأول بنية في بنائه، وصلاح الفرد يبدأ بصلاح باطنه لا صلاح ظاهره وهو منهاج رباني محمدي، قوامه الذكر وقراءة القرآن والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وشرطه الصدق والإخلاص وحسن المعاملة والأخلاق الفاضلة وطابع السلام ولين الجانب والاخاء والوئام، ومحبة الخلق انطلاقا من محبة الخالق.

4 - آلية تفعيل التربية الروحية (التصوف):

يمتلك التصوف طاقة تربوية هائلة تعمل على إنارة القلوب وتربيتها على المحبة فهو كفيل بترقية الخطاب التربوي والديني عل السواء لدى المرشدين والمربين والقائمين على الشأن العام.

إن تفعيل الجانب الروحي في الإنسان المسلم هو الخطوة الأولى في إصلاح أدواء المجتمع ونحتاج في ذلك إلى ما يلي:

1/- ربط الإيمان بالأخلاق وإعادة تفعيل الخشية والحياء من الله حتى تعود لكل الشعائر الدينية روحها ووضائفها، فالإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

2/- الإسلام نسق أخلاقي وليس شعائر وطقوس جامد فما أبلغ جواب جعفربن أبي طالب حين سأله النجاشي عن دينه قال: « **أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.**» [27]

لقد انطوى جوابه رضي الله عنه على تلخيص وشرح أهم ضوابط السلوك السوي لدى المؤمن، وأهم دعائم العقيدة الإسلامية.

3/- إعادة ربط العملية التعليمية بكل مراحلها بروح التربية الروحية الإيمانية، فما فساد أخلاق العالم والمتعلم إلا بسبب فصل التعليم عن التربية، فالكل مسؤول عن ما آل إليه المجتمع من جفاف روحي وانحدار أخلاقي وانتشار العنف.

4/- إعادة الاعتبار لدور الزوايا والمساجد في إعداد النشء وربطه بالقرآن والمبادئ السامية للإسلام.

5/- السلوك الخلقي المستقيم

في التصور الإسلامي ثمرة من ثمار العقيدة الصحيحة وله في كل جوانب الحياة حضور، وتأتي الأخلاق ميدان تطبيقي لمفاهيم العقيدة.

6/- إعادة الاعتبار لتراث العارفين من أعلام التصوف في تاريخ الجزائر والذين كانوا مربين دعاة إلى الله مجاهدين سباقين للذود عن حياض الأمة، وتاريخ العارفين منهم ثري وغني بنماذج ساهمت في الحفاظ على عقيدة الإسلام من طرق ووسائل الطمس والدمار الذي انتجها العدو الغازي الغاشم. من أمثال أبي مدين شعيبب، والأمير عبد القادر، وعبد الرحمان الثعالبي، والشيخ الحداد وغيرهم كثير.

7/- إعادة الاعتبار لدور الزوايا ومناهج الطرق الصوفية في تربية النشئ وتنقيتها مما علق بها من مظاهر الانحراف والبدع التي لا تمت بصلة إلى أهل الطريق.

8/- تفعيل دور الشيوخ والمربين الذين يحملون سمت التدين والالتزام الخلقي في اصلاح ذات البين و اقحامهم للحد من تفاقم الكثير من القضايا النزاعية والظواهر الاجتماعية بالموعظة الحسنة والسعي إلى إرجاع أفراد المجتمع إلى احترام الجماعة والقيم الإسلامية السمحة كالتعاون وإصلاح ذات البين ودرء المفاسد المترتبة على انتشار الطلاق والتفكك الأسري وتعاطي المحرمات من المخدرات والخمور.

9/- ينبغي على القائمين على الزوايا وحتى المساجد مسايرة مستجدات الحياة الاجتماعية، خاصة أن التصوف الإسلامي المتسم بالوسطية والاعتدال وسمو التعامل مع الآخر وضيفة إصلاح المجتمع التي يدعو إليها التصوف وإنما هي غاية كل مسلم.

خاتمة:

إن التصوف رافد من روافد الثقافة والتاريخ الجزائري، ينبغي إعادة الاعتبار لثرائه ومواقفه المشرفة، وتصحيح الصورة المشوهة عنه في أذهان العامة والخاصة، وإصلاح ما علق به من مظاهر البدع والخرافات التي البت عليه الخصوم الرافضين له جملة وتفصيلا.

إن للدين سلطانًا روحيًا على المجتمع رغم مظاهر البعد عن سمت الأخلاق الإسلامية في الحياة العامة والخاصة للمجتمع فما أحوجنا إلى تفعيل روافدنا الثقافية من تراث صوفي ومدارس قرآنية وكتاتيب ومساجد كادت تفقد دورها المنوط بها في التربية والتوجيه وإصلاح المجتمع والتعليم.

قائمة الهوامش:

(1)- أبو العباس أحمد بن محمد زروق: قواعد التصوف، صححه وعلق عليه: محمد زهري النجار، 1419 هـ /1998م، المكتبة الأزهرية للتراث، ص. 04.

(2)- صححه مسلم، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1991م، ح1، ص37.

(3)- المزيدي، أحمد فرد، الإمام الجنيد سيد الطائفتين مشايخه، أقرانه، تلامذته، أقواله، كتبه ورسائله، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 2006 م ص 260.

(4) - المصدر السابق، ص260.

(5) - القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات: تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2007 م، ح3، ص 223.

(6)- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، (د ت)، ح2، ص 203، 207.

(7)- المصدر نفسه، ج2، ص210.

(8)- المصدر نفسه، ح2، ص 211 - 213.

(9)- السراج الطوسي، اللمع، تحقيق وتقديم عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مصر، دار الكتب الحديثة، مكتبة المثنى، بغداد، 1960 م، ص 22.

(10)- القشيري، تفسير القشيري، المسمى الطائف الإشارات، ج1، ص 18.

(11)- الأصفهاني أبو نعيم أحمد، حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، مكتبة الخاندي، القاهرة، دار الفكر، بيروت، 1996 م، ج7، ص33.

(12)- الشهرستاني، أو الفتح محمد عبد الكريم، الملل والنحل . دار الفكر، بيروت - لبنان (د ت)، ص 101.

(13) - محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الإسلامي، شخصيات ومذاهب. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1404 م / 1984، ص 17.

(14)- ابن خلدون، المقدمة، اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، دت، ص 25.

(15)- المصدر السابق، ص 23.

(16)- المصدر السابق، ص 27.

(17)- المصدر السابق، ص 28.

(18)- الشاطبي، الموافقات، كتاب الإحكام، المحقق عبد الله دراز ومحمد عبد الله وعبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، لبنان ط7، 205، 239 - 300.

(19)- مجدي محمد محمد عاشور، الثابت والمتغير في فكر الإمام أي إسحاق الشاطبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ط2، 2002، ص 456.

(20)- الشاطبي الموافقات 3 / 340 - 343.

(21)- الشاطبي الموافقات، 1 / 338، 2/ 130.

(22)- أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيرون، ط 3، 2007، ص43.

(23)- شرح بي أي داود للعلامة آبادي، دار الحديث، القاهرة، ط 2001، 8 /309.

(24)- الشاطبي، الموافقات، 2 / 135

(25)- الشاطبي، الموافقات، 1 / 315.

(26)- أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، ط1 2000 م، ص23 - 25.

(27) - أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة أم المؤمنين.

المضامين التربوية الروحية للتصوف الإسلامي

قراءة تحليلية للدلالات الاصطلاحية للتصوف الإسلامي

قول معمر

جامعة الشهيد حمّة لخضر الوادي

مقدمة:

تعتبر تزكية الإنسان من أهم المقاصد التربوية في الإسلام، فالسعي لإصلاح الجزء متضمن للكلّ ومتعدّ إليه، وقد عرفت الحضارة الإسلامية علما جعل هذا المقصد هدفه وغايته وموضوعه وهوعلم التصوّف الإسلامي الذي ركزّ أساطينه وأربابه على مشروع التربية الرّوحية بطريق التحلية والتخلية، التحلية بالفضائل والتخلية من الرذائل عن طريق مداواة النفوس وترويضها وإصلاح القلوب وتطهيرها، وهي عملية يمكن من خلالها العودة بالإنسان إلى أصله وفطرته وتحقيق المصالحة والسلم مع ذاته ونفسه بحملها على مقتضى الآداب والفضائل والقيم والنأي بها عن الرذائل، ويمكن أن نلمس هذه الأهداف والغايات في تلك الحدود والتعاريف التي وضعها علماء التصوّف لحدّه وبيان موضوعه، رغم كثرتها التي عبّر عنها الشيخ زرّوق الفاسي البرنسي(899هـ) في كتابه قواعد التّصوّف في القاعدة 02 قائلا: «**وقد حُدّ التّصوّف ورسم وفسّر بوجوهٍ تبلغُ الألفين مرجعها كلّها لصدقِ التّوجّه إلى الله تعالى، وإنّما هي وجوه فيه والله أعلم**».

وتحديد العلاقة بين التربية الروحية والتصوّف يمكن أن يُستشفّ من خلال هذه التعاريف التي وضعها

القوم وبيان مضامينها ودلالتها، فحدّ الشيء وحقيقته منبئة بموضوعه الذي لأجله وُضع، واستنطاق هذه التعاريف وتحليلها استماع رؤية موضوعية ومنهجية من شأنها أن تؤكد على الأبعاد التربوية والروحية للتصوف الإسلامي وتأكيد لأصالته واستمداده من الوحي الشريف، ومرافعة عنه في الوقت نفسه ضدّ بعض الرؤى التي رسمت عنه صورة نمطية ارتبطت بالرسوم والأشكال والطقوس، فلا سبيل لإبراز أصالته وسموّ أهدافه وغايته إلا من خلال الوقوف على أصل وضعه وحدّه، وهو ما عبّر عنه الشيخ زروق الفاسي بقوله في القاعدة 05 من كتابه: «إسناد الشّيء لأصلِ والقيام فيه بدليلِه الخاصّ به يدفعُ قول المنكِر بحقيقتِه [لأنَّ ظُهورَ الحقِّ في الحقيقةِ يمنعُ من معارضتِها]».

وعي ضوء هذا نطرح التساؤلات التالية، ما مفهوم التصوف الإسلامي؟ وما هي مضامينه الروحية والتربوية؟ وهل يُمكن أن تساهم هذه المضامين في إعادة تشكيل الصورة الصحيحة عن التصوف الإسلامي؟ وما مدى مساهمته في تحقيق السلم الداخلي والخارجي (فردا ومُجتمعا).

خطّة العمل:

1 -الإنسان وأبعاده المختلفة

2 -أصالة التصوف الإسلامي ومنزلته في الإسلام

3 -مفهوم التصوف الإسلامي ومضامينه التربوية والروحية

4 -التصوّف الإسلامي من سلام الباطن إلى سلامة العوالم الخارجية -قراءة في الثمرات-.

- خاتمة

1 -الإنسان وأبعاده المختلفة في التصور الإسلامي:

بالوقوف على المنتج المعرفي الإنساني في مختلف الميادين المعرفية تتجلى مضامين خطاباته المختلفة، إذ كان هذا المنتج إجابة عن تلك التساؤلات التي شغلت فكر الإنسان وحاول من خلالها إشباع حاجاته المختلفة الروحية والبيولوجية والنفسية والعقلية وحتى مدارك الخيال، فنشأ على إثر هذه الرؤى علوم مختلفة كعلم النفس والتصوف والطب والفلسفة والفنّ والرسم والموسيقى، وهذا التعدد والتنوع تأكيد على الجوانب المختلفة للإنسان، وهو ما أشار إليه صاحب كتاب الإنسان ذلك المجهول حين اعتبر الإنسان كلا لا يتجزأ وفي غاية التعقيد مما يجعلنا عاجزين عن إيجاد طريقة لفهمه في مجموعه وأجزائه وعلاقاته مع العالم الخارجي ولتحليل أنفسنا لا بد من الاستعانة بعلوم مختلفة [1].

تتجلى هذه الحقيقة الكيانية للإنسان في تلك الصورة التي رسمها القرآن الكريم عنه وحديثه المستفيض عن كل ما يتعلق به، بل كان أحد المحاور الرئيسة في الخطاب القرآني، ويمكن أن نلمس هذه الأبعاد المختلفة من خلال تلك الرحلة التي رسمها القرآن الكريم للإنسان وقصة خلقه وامتزاج الطين بالروح، بل يؤسس القرآن الكريم لماهية الإنسان قبل وجوده من خلال آية الميثاق والعهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف / 172، أما ثنائية الروح والجسد فأشارت إليها آيات كثيرة منها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾الحجر /28 - 29،

وجاء في تفسيرها: **" عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي حين جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي، وأصل النفخ: إجراء الروح في تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسري في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً "** [2].

على ضوء هذه الثنائية في خلق الإنسان تفرعت مختلف القوى الأخرى فمنها ما لاحق بعالمه الترابي الأرضي الطيني وهي حاجاته البيولوجية ووظائفه الفيزيولوجية، وهي استعدادات تؤهله للاتصال بعالمه الخارجي الحسّي عن طريق حواسّه، ومنها ما يلحق عالمه الروحاني النوراني وهي تلك اللطيفة القلبية المودعة في القالب الجسماني والتي عبّر عنها النبي بالمضغة في قوله **«أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»**[3]، والنّفس الإنسانية مجموع هاته القوى، وجنودها في حراب وقتال وشجار فَتَارَة تنْزع إِلَى جَانب الْعُقُول فتتلقى المعقولات وَتثبت على الطَّاعَات وَتارَة تستولي عَلَيْهَا القوى فتهبط إِلَى حضيض منَازِل الْبَهَائِم فَهَذِهِ نفس لوامة وَهَذِه النَّفس هِيَ حَالَة أَكثر الْخلق وتارة ترتفع إِلَى أفق الْمَلَائِكَة فتتحلّى بالعلوم والفضائل فتغدو ملكا جسمانيا وَمن اتضع حَتَّى صَار فِي حضيض الْبَهَائِم لم تكن مشاركته للإنسان إِلَّا بالصورة التخطيطية [4]، وعلى هذا الأساس فالرغبات والحاجات

تختلف باختلاف قوة حضور هذه القوى، لذا يرسم لنا أبو حامد الغزالي صورة لهذا النزاع الداخلي في كتابه «**معارج القدس**»، فيرى أن الإنسان من حيث غذاؤه وتناسله فنبات، ومن حيث إحساسه وحركته فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فصورة منقوشة على حائط. وإنما خاصته التي بها تميز عقله، المدرك لحقائق الأشياء. فمن استعمل قواه بغرض العلم والعمل، فقد تشبه بالملائكة، ومن صرف همته إلى طلب اللذات والشهوات فقد نزل إلى أفق البهائم[5].

ونجد هذه الصورة نفسها في تراث مولانا جلال الدين الرومي إذ يرى أن الدنيا نصيب الجزء الحيواني لآدم، فالجسد غذاؤه الشهوات والآمال أما الجوهر فغذاؤه العلم والحكمة ورؤية الحقّ، فحيوانيته تفرّ من الحقّ، أما إنسانيته فتفرّ من الدنيا، لذا يعتبر الرومي أن اشتغال الإنسان بالصور والماديات يجعل منه طفلا غير بالغ حتى ولو كان شيخا ذا مئة سنة، وعليه أن يُدرك بأنه يحمل بداخله جوهرا ويُمثل لذلك بالغزال والمسك، فالسعيد من وصل إلى المسك وغدا مسكا[6].

وموضوع الإنسان عند الشيخ الأكبر ابن عربي شغل حيّزا كبيرا من فكره وتراثه، فيرسم لنا برؤيته العرفانية العميقة صورة سامية للإنسان، ففي كتابه إنشاء الدوائر يقول عن هذه المكانة: «. . . فإذا نفخ في الإنسان روح القدس التحق بالوجود المطلق التحاقا معنويا مقدسا وهو حظه من الألوهية [7] فلهذا تقرر عندنا أن الإنسان نسختان، نسخة ظاهرة ونسخة باطنة فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره فيما قدّرنا من الأقسام والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الإلهية، فالإنسان هو الكل

على الإطلاق والحقيقة، إذ هو القابل لجميع الموجودات...»[8]

ومما يمكن أن نستدل به أيضا على عوالم الإنسان المختلفة حديث القرآن الكريم عن النفس وأمراضها وعللها وحاجاتها، مع الدعوة إلى تزكيتها وتطهيرها، قال تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾الشمس/09 - 10، وجاء في تفسيرها: "... فاز بكل مطلوب، ونجا مِن كل مكروه مَن طَهَّرَها وأصلحها وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دسّاها﴾؛ أغواها، قال عكرمة: " أفلحت نفس زكّاها اللهُ، وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن تكون التّدسية والتطهير فعل العبد، والتّدسية الدّس والإخفاء، أي: خسر مَن نقصها وأخفاها بالفجور... "[9]. وحديثه عن أمراض القلوب من كبر وحسد، لذا كان الاشتغال بإصلاحها وتطهيرها انتصار للمطالب الروحية العالية وتحقيق لغاية العبودية والاستخلاف واستحقاق للتكريم الإلهي وتجسيد لإنسانية الإنسان والعودة به إلى أصل الفطرة التي خلقه الله عليها، وهذه خاصية ينفرد بها الإنسان عن غيره من الموجودات: "... إن النفس الإنسانية تمتاز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة... ومن خصائص هذه القوة العاقلة، أنها القوة التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويُشرق منها ضوء كبريائه، فتهيء صاحبها بذلك لممارسة العبودية لخالقها العظيم جلّ جلاله، فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله عز وجل، وإذا كان الأمر كذلك، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم..."[10].

إن صورة الإنسان وفق التصور الإسلامي صورة معتدلة تجنح عن كل تفريط أو إفراط أو غلو، ورؤية تجمع له بين مطالبه الجسدية البيولوجية وعالمه المادي، وفي الوقت نفسه تدعوه لأن يكون وفق المطلب الإلهي بالتحقق بالكمالات والفضائل تحقيقا للسعادة في الدارين ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص/77، فالرّوح هي الجوهر الإنساني وهي كالمرآة عاكسة لكل الكمالات، وفي هذا يقول الشيخ الرئيس: "ترتسم فيها المعقولات من الفيض الإلهي كما ترتسم الأشباح في المرايا الصقيلة إذا لم يفسد صقالها بطبع ولم تُعرض بجهة صقالها عن الجانب الأعلى مشتغلة بما تحتها من الشهوة والغضب والحسّ والتخيّل، فإذا أعرضت عن هذه وتوجّت تلقاء عالم الأمر لحظت الملكوت الأعلى واتصلت باللذة العليا..."[11].

2 -أصالة التصوف الإسلامي ومنزلته في الإسلام:

أ/ أصالته: يُعتبر التصوف الإسلامي من علومِ الدّين، التي جعلت التزكية هدفا والنّفس موضوعا والطّريقة وسيلة وهو ما بيّنهُ أعلام التّصوّف، فقال الإمام الطوسي في اللّمعِ في جوابِه عن سؤالٍ وُجّه إليه مفادُه بيانَ حقيقةِ علمِ التّصوّفِ ومذهبِ الصّوفيّة، وبيّن أنّ العلومَ المتداولةَ بين العلماء لا تخرج عن ثلاثٍ: آياتٍ من كتابِ الله عزّ وجل، أو خبرٍ عن رسولِ الله S ، أو حكمةٍ مُستنبطةٍ ظهرتْ على قلبِ وليٍّ من أولياءِ الله[12].

وهو ما ذكرهُ ابن خلدون في سياق حديثه عن العلومِ المختلفةِ التي نشأتْ في الحضارةِ الإسلاميّة، وعدَّ التّصوّفَ منها فقال: «**هذا العلمُ من علومِ الشّريعةِ الحادثةِ في الملّة...**»[13].

لذا انفرد التّصوّف بخصوصيّةِ اصطلاحاتِه، وخصوصيّةِ التّجربةِ الصّوفيّةِ من جهةٍ أخرى القائمة على الذّوقِ والمكابدة، فلا يُمكن إدراكَ حقيقةِ التّجربةِ الصّوفيّةِ إلّا بتجربةٍ مماثلةٍ جوّانيّة، وهو ما صعّبَ البحثَ في التّجربةِ الصّوفيّة، وهو ما صرّحَ به الغزالي في كتابِه المُنْقِذُ من الضّلال، فبَعْدَ قراءتِه ما ألّفهُ أساطينُ التّصوّفِ الإسلامي توصّلَ إلى نتيجةٍ مفادُها أنّهُ لا يمكنُ إدراكهُ – التّصوّف - إلّا بالتّعلّمِ والذّوْقِ والحالِ، فأدركَ بعد تجربةٍ أنّهم أرباب أحوالٍ لا أرباب أقوال، وعَلِمَ أنّ أخلاقَهم أزكى الأخلاقِ وسيرتَهم أحسنَ السّير، وقد سار الغزالي في طريقِهم وأخذَ نفسَه بالرّياضةِ والمجاهدةِ مُدّةً طويلةً حتّى انكشفتْ له[14] في خلواتِه أمورٌ لا يمكنُ حصرها، وانتهى به هذا إلى اليقين، وأدركَ أنّ المعرفةَ الحق هي ما كان عن طريقِ الكشف، ويعلّقُ الغزالي على طريقةِ القومِ بقوله: «...

إنّ جميعَ حركاتِهم وسكناتِهم في ظاهرِهم وباطنِهم مقتبسةٌ من نورِ مشكاةِ النُّبوّةِ وليس وراء نورِ النُّبوّةِ على وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به»[15].

إنّ الحديث عن التّصوّفِ تفعيلٌ لما جاء به القرآنُ الكريمُ والسُّنّة النّبويّة، ونقصدُ بذلك الأحكام التي تضمّنها الإسلامُ جملة، وهي تندرجُ تحت ثلاثةِ أقسامٍ رئيسيّة، وهي العقائدُ والفروعُ من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاق[16].

وهذه الثلاثية هي المُعبّر عنها بالإسلامِ والإيمانِ والإحسان[17]، وعلى ضوءِ هذه الأقسامِ نشأتْ علومٌ حاولَ أصحابُها تقعيد قواعدِها وبيان أصولِها وفروعِها استنباطًا من الوحي الشّريف، فأسس علم العقائدِ المتعلّق بالأصولِ ببيانِ أصولِ الاعتقاد، وهو المعبّر عنه بأركانِ الإيمانِ السّت، وأسس علم الفقه المتضمّن لأبوابِ العباداتِ من صلاةٍ وزكاةٍ وغيرها، ومعاملاتٍ

كبيعٍ وزواجٍ وميراث، وأسس علم ثالث اهتمَّ أساطينُه بمبحثِ الأخلاقِ عن طريقِ مداواةِ النُّفوسِ بتحليتِها بالفضائلِ وتخليتِها من الرّذائلِ، وهو علمُ التّصوّفِ الذي كان موضوعُه الرّئيس إصلاح النّفسِ الإنسانيّة، وهو المعبّر عنه بالإحسانِ في حديثِ النّبي S ، لذا دفع الشّيخُ زرّوق الفاسي في قواعدِه اعتراض منْ يرى أنَّ التّصوّفَ دخيلٌ لا أصلَ لهُ من كتابٍ وسنّةٍفي القاعدة 05 من كتابه: "إسنادُ الشّيء لأصلِه والقيامُ فيه بدليلِه الخاصّ به يدفعُ قول المنكِر بحقيقتِه [لأنَّ ظُهورَ الحقّ في الحقيقةِ يمنعُ من معارضتِها]، فأصلُ التّصوّفِ مقامُ الإحسانِ الذي فسّرهُ رسولُ الله S بأنْ تعبدَ الله كأنّك تراه. . . كما دار الفقهُ على مقامِ الإسلام، والأصولُ على مقامِ الإيمان، فالتّصوّفُ أحدُ أجزاءِ الدّين"[18].

لذا دعا علماءُ الأمّةِ من الفقهاءِ وأساطينِ التّصوّفِ الإسلامي إلى مراعاةِ أحكامِ الشّريعةِ الإسلاميّةِ في الجملةِ سواء ما تعلّق منها بالأوامرِ من أقوالٍ وأفعالٍ ظاهرةٍ كالصّومِ والصّلاةِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ أو ما تعلّق بالنّفسِ والقلب ِكالإخلاصِ والتّواضعِ والحبِّ في الله والبغضِ فيه، وكذا النّواهي المتعلّقة بظاهرِ الأقوالِ والأفعال، كالنّهي عن القتلِ بغيرِ حقٍّ والسّرقةِ والزّنى والغيبة والنّميمة، وإلى ما يتعلّق بأعماقِ النّفسِ أو القلبِ كالنّهي عن الكبْرِ والعُجبِ والرّياءِ والحقدِ والضّغائنِ والتّعلّقِ بزخارفِ الدُّنيا وأهواءِ النّفوس[19].

ب/أهميته:

يكتسي التصوّف أهميّته بالنظر إلى موضوعه الذي من أجله وضع له، وهو مداواة النفوس بتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، وحملها على مكارم الأخلاق وأمهات الفضائل،

وقد بينا في مفهوم التصوّف انصرافه إلى الأخلاق، وهي رسالة الإسلام ونبي الإسلام S ، فقد بيّن الله أن المقصد من نبوته ورسالته هو البعد الأخلاقي والقيمي، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة /02. وجاء في تفسيرها: " وَابْتُدِئَ بِالتِّلَاوَةِ لِأَنَّ أَوَّلَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ بِإِبْلَاغِ الْوَحْيِ، وَثُنِّيَ بِالتَّزْكِيَةِ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الدَّعْوَةِ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الرِّجْسِ الْمَعْنَوِيِّ وَهُوَ الشِّرْكُ، وَمَا يَعْلَقُ بِهِ من مساوئ الْأَعْمَالِ وَالطِّبَاعِ " [20]، ولا شكّ أن التّطهير من مساوئ الأعمال والطّباع تغيير للأخلاق الذميمة إلى أخلاق حسنة، وفي الحديث الشريف ما يؤكد على هذا المعنى في قوله S "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ " [21].

لذا كانت الأخلاق قسما هاما من أقسام الرسالة التي تضمنت التوحيد والأصول(العقائد) والعبادات والمعاملات، والأخلاق داخلة في هذه الأقسام الثلاث، وهو ما يؤكده حديث جبريل المشهور عن الإيمان والإسلام والإحسان، وينقل الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث قولا للقاضي عياض قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ – في شرح عبارة « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»:

«وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى شَرْحِ جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَإِخْلَاصِ السَّرَائِرِ وَالتَّحَفُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا راجعة إليه ومتشعبة مِنْه» [22].

والقرآن الكريم متضمن للدعوة إلى مكارم الأخلاق والفضائل، بل من

مقاصده تطهير الإنسان وتزكيته، لذا امتدح الله من يشتغل بإصلاح عيوب نفسه وتطهيرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾الشمس/09 - 10، وجاء في تفسيرها: أي: فاز بكل مطلوب، ونجا مِن كل مكروه مَن طَهَّرَها وأصلحها وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دسّاها﴾؛ أغواها، قال عكرمة: " أفلحت نفس زكّاها اللهُ، وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النفس والإخفاء، أي: خسر مَن نقصها وأخفاها بالفجور"[23].

ولأهمية مقام الإحسان والتزكية في الإسلام جعله الله أحد المحاور التي يدور عليها موضوع القرآن الكريم، وهو شامل لكلّ المستويات فردا وأمة وجماعة ودولة، وفي هذا يقول محمد الغزالي: «وهكذا نرى الإحسان يشمل الفرد والمجتمع والدولة، ولن تقوم تربية راشدة إلا إذا غرسنا معنى الإحسان في النفوس على أنّه من محابّ الله تبارك وتعالى» [24].

والجانب العبادي في الإسلامي من صلاة وزكاة وصوم وحج إنما المقصد من تشريعها كونها مدارج للكمال المنشود وروافد للتطهر [25]، ويعلّق الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله- على حديث جبريل ويُبرز جامعيته وشموليته التي تضمنت الأسس العظيمة التي تحقق السعادة للإنسان باعتباره مستخلفا ومكلفا فيقول: « والحديث الذي بين أيدينا يشرح الحقيقة الصحيحة للدين، والإيمان إذا صحّ لا بد أن ينتج العمل، والعمل إذا صحّ لا بد أن يرتكز على الإيمان، والإحسان إذا صح لا ينشأ إلا من إيمان راسخ وعمل كامل. . . والإسلام لا يصح إلا بالروح الكامنة فيه، والوقود

المحرّك له أي الإيمان الحقّ، فإذا استبطن هذا اليقين الدافع فأمامه مثله الأعلى في إحكام الصلة بالله، والشعور برقابته الدائمة، وشهوده الجليل وهو مقام الإحسان» [26].

إن إحياء النفوس البشرية وتطهيرها وهداية الحيارى من الناس في واقعنا اليوم مع تحديات العولمة وما صاحبها من خواء روحي وقيمي وأخلاقي وتصارع على الشهوات والماديات لا يمكن أن يقوم بهذا كله إلا الروحانية المنبثقة من جوهر التصوف الإسلامي، لذا يرى الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله- أن التصوف باعتباره جانب من جوانب الثقافة الإسلامية الرحبة لم يلق العناية المستحقة من جمهرة المتكلمين والفقهاء، والمتصوفة – رغم بعض شطحاتهم هم من أثاروا هذا المبحث الجوّاني، فالفقهاء كتبوا المجلدات في غسل الأطراف، والمتكلمون عقدوا الفصول في الشؤون الإلهية، وعجزوا أن يرفعوا الناس إلى حضرة الله بأسلوب علمي محكم [27]

وما ذكره الشيخ محمد الغزالي صحيح، إلا أن ما تجدر الإشارة إليه أن الفصل عند سلفنا بين ما هو كلامي وفقهي وما هو روحي أخلاقي كان لظروف العصر والسياق الثقافي والتاريخي الذي ألجأ سلف الأمة إلى تلك المباحث، لكن هذا لا يرفع المساءلة ولا النقد من باب جلد الذات.

يكتسي التصوف الإسلامي أهميته من حيث كونه موجّه لإصلاح الباطن كما جُعلت الشريعة من حيث العبادات لإصلاح الظاهر عن طريق الأحكام الشرعية من مأمورات ومنهيات، وعبادة الظاهر شريعة وعبادة الباطن شرع أيضا ولا فصل بينهما، بل من الخطورة الاعتقاد بهذا الفصل، يقول الشيخ محمد الغزالي

– رحمه الله – في هذا المعنى: « **إن الله شرع الدّين موضوعا وشكلا، معنى ولفظا، يقظة نفسية، وحركة بدنية، فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن، فهو يعبث بالدين ويتخذه لعبا ولهوا**» [28].

وهذا الأمر هو ما يُطلق عليه بثنائية الشريعة والحقيقة، لذا نجد سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام يؤكّد على هذه الثنائية، مبيّنا دور التصوف في إصلاح القلوب والبواطن وتزيينها بما يقربها من الكمال فيقول: « ومعرفة ذلك هي الملقّبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشّريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشريعة. . .» [29].

ولعلّ ما غيّب صورة التصوف الحقّة ورسم عنه صورة سيئة كون أغلب الناس جعلوه رسوما وأشكالا وخِرقة، وهو في حقيقة أمره حُرقة وألم دائم ويقظة روحية لمن أنصف، ومما استوقفني في هذا المقام تعليق الأستاذ زكي مبارك – رحمه الله -على الفهم الخاطئ للتصوف الإسلامي، فقال: « وكيف يقصر التصوف على أصحاب الرسوم والأشكال وهو من رسوم القلوب وأشكال الأرواح، إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص. . . فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة. . .» 30.

ويذكر الإمام أبو الحسن الندوي في كتابه «ربانية لا رهبانية» دور التصوف الإسلامي في التزكية وإصلاح القلوب ويرى أن استبعاد التصوف

كمشروع أخلاقي كان بسب التسمية « تصوف»، لذا صاغ إشكالية مفادها جناية المصطلحات على الحقائق والغايات، لذا يرى أن الأجدر أن يُسمّى التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن [31]، وهو رأي يحسم الخلاف بين أهله، لكنه ظلم معرفي لأهله من أصحاب التصوف، إذ لا مُشاحة في الاصطلاح، فالتصوف علم من العلوم التي نشأت في الحضارة الإسلامية، له أصوله وقواعده ومصطلحاته عند أهله، ولا يُمكننا أن نغيّر تسمية علم من العلوم بدعوى أنه لم يُرض طائفة معيّنة، بل إنّي أرى أن واجب تجديد التصوف الإسلامي واستحضاره للساحة المعرفية والتربوية يكون بالدفاع عن اسمه وشرح قواعده وأصوله.

ونذكر في ختام هذا المبحث شهادة لأحد كبار الباحثين من المستشرقين في مكانة التصوف الإسلامي وهو هنري كوربان فيرى أن التصوف الإسلامي ظاهرة روحية لا تقدّر واستثمار لروحانية النبي S وجهد لعيش أنماط الوحي القرآني عيشا شخصيا عن طريق الاستبطان، فالمعراج النبوي هو النموذج الذي حاول المتصوفة بلوغه والتصوف اعتراض على كل نزعة حاولت حصر الإسلام في ظاهر النصّ [32]، ولا ننسى أن نذكر أيضا انجذاب كبار المستشرقين إلى التصوف الإسلامي وإنصافهم للإسلام ودفاعهم عنه انطلاقا من نافذة التصوف الإسلامي، ومن هؤلاء نذكر الفرنسية التي أسلمت إيفا ديفيترايميروفيتش التي وهبت نفسها لقراءة مولانا جلال الدين الرومي، وكذا المستشرقة الألمانية أنيماري شيمل وأعمالها عن الرومي أيضا، ومن أبرزهم أيضا الشيخ عبد الواحد يحيى – رحمه الله – ولعلّ الله يكتب لنا عودة إلى هؤلاء الأعلام وإبراز جهودهم والتعريف

بهم في عمل أكاديمي خدمة للتصوف الإسلامي وبيانا لأنوار الإسلام وفضل سيدنا محمد S على الأمة ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

3 -مفهوم التصوف الإسلامي ومضامينه التربوية والروحيّة:

البحث في مفهوم التصوف له منحيان منحى فيلولوجي (لغوي) متعلق بأصل كلمة صوفي ومتصوف وفي زمن ظهور المصطلح، والمنحى الآخر متعلق بالدلالة الاصطلاحية للتصوف الإسلامي كما وضعها أساطين التصوّف[33]، وإن كان الجانب الأول قد أخذ حيّزا كبيرا من اهتمام الباحثين خصوصا من المستشرقين الذين حاولوا ردّ المصطلح إلى أصول أجنبية، وهي رؤى تعكس الخلفية الأيدولوجية لأصحاب هذا التيار محاولة منهم نفي أي جدّة أو ابتكار أو عبقرية للحضارة الإسلامية، وقد دافع ثلّة من العلماء عن أصالة الفكر الإسلامي كالشيخ مصطفى عبد الرازق وعبد الحليم محمود وعلي سامي النشار.

أ/ لغة: تضاربت الأقوال قديما وحديثا في أصل الكلمة – الصوفي – وأبرز الاشتقاقات التي ذكرت في هذا الباب هي كالآتي: أنه مشتق من الصوف تارة ومن الصفاء، ومن الصف الأول، ومن أهل الصفّة وإلى رجل اسمه صوفة، وإلى صوفة القفا، وإلى الصوفانة (نبتة بالصحراء)، وإلى الكلمة اليونانية سوفيا[34].

وقد تضمنت المصادر الأولى للتصوف هذه الأقوال وتمت مناقشتها وردّها، من ذلك ما أورد الإمام القشيري(ت 465هـ) في الرسالة، حيث ذهب إلى أن هذه الاشتقاقات (باستثناء الصوف) لا تقتضيها اللغة ولا تستقيم، فالقول بأنه من الصفاء غير صحيح لأن النسبة تكون صافي،

والقول بأنه من أهل الصفة فالنسبة تكون صُفّي، والنسبة إلى الصفّ الأول غير صحيحة لأن النسبة إليها تكون صَفّي، أما القول بأنها نسبة إلى رجل يسمى صوفة فقد ردّه الباحثون ومنهم علي سامي النشار قائلا: « **ولكن إذا كان الإسلامُ قد لحِقَ ببني صوفة وعرفَ المؤرّخون اسمَ شيخِ هذا البطنِ الذي لحقَ به الإسلامُ فأيْن ذهبَ البطنُ بعد ذلك، هلْ تمزّقَ بنُو صوفة شذر مذر وعفا عليهم التّاريخ؟** ؟...» [35].

وأمام هذا الإشكال ذهبت أغلب مصادر التصوف الأولى إلى أن الاشتقاق الأقرب الذي أخذت منه الكلمة هو الصوف، وإن كان القشيري يرى رأيا أخر يُدفع به كل اعتراض عن هذه المسألة بقوله:«وليس يشهدُ لهذا الاسمِ من حيثُ العربيّة قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنّه كاللّقب. . .» [36].

وهو ما اختاره عبد الواحد يحي فيما نقله عنه فضيلة الشيخ الأكبر عبد الحليم محمود في كتابه عن المدرسة الشاذلية: « أمّا أصل هذه الكلمة – صوفي-فقد اختلفَ فيه اختلافًا كبيرا، ووضعت فروض متعدّدة، وليس بعضها بأولى من بعض، وكلُّها غيرُ مقبولة، إنّها في الحقيقة تسميةٌ رمزيّة. . .» [37].

وتأخذ هذه التحليلات اللغوية منحيان، أحدهما تحليل الكلمة داخل المعجم اللغوي العربي وفيه تأكيد على أصالة التصوف الإسلامي واعتباره علما أصيلا في الحضارة الإسلامية وثانيهما اسقاط الكلمة على الثقافات الأجنبية والتراث الخارجي (هندوسية –بوذية – مسيحية- يونانية)، وهو رأي ذهب إليه أغلب المستشرقين، ومال إليه بعض علماء الإسلام كما نجد ذلك عند أبي الريحان البيروني

في كتابه عن الهنود، ومحاولته إيجاد النقاط المشتركة بين حكماء الهند وصوفية المسلمين [38].

ب/ اصطلاحا:

توطئة: إن الوقوف على معنى التصوف من الناحية الاصطلاحية دخول في عمق التجربة الصوفية، إذ قصارى ما انتهت إليه مختلف التعريفات هو التعبير عمّا اختلج في الصدر، مما كابده وشاهده من سلك طريق الحقّ عز وجل ولاحت عليه منه الأنوار، من هذا المنطلق يمكن تفسير ذلك التعدد والتنوع في التعاريف الاصطلاحية للتصوف الإسلامي، لذا يشير الشيخ زروق الفاسي في قواعده إلى هذا الأمر بقوله:

«وقد حُدّ التّصوّف ورسم وفسّر بوجوه تبلغُ الألفين مرجعها كلّها لصدق التّوجّه إلى الله تعالى، وإنّما هي وجوه فيه والله أعلم» [39].

ونجد الإمام القشيري – عمدة أهل التصوف – يفسّر لنا هذا الثراء في المعنى بعبارة دقيقة: «وتكلّم النّاس في التّصوّف ما معناه؟ وفي الصّوفي من هو؟ فكلٌّ عبّر بما وقع له...» [40].

وفي قوله: [فكلٌّ عبّر بما وقع له] إشارة دقيقة إلى الحقيقة الذّوقية للتصوف الإسلامي، هذه الحقيقة لا تعني أن الصوفية أرباب أحوال فقط إنما كانوا أرباب أعمال، وهو ما أشار إليه أبو حامد الغزالي في تجربته الرّوحية مؤكدا أن الصوفي هو الوارث الحقيقي لمشكاة النبوة بقوله: «... إنّ جميعَ حركاتهم وسكناتهم في ظاهرِهم وباطنِهم مقتبسةٌ من نورِ مشكاةِ النُّبوّةِ وليس وراء نورِ النُّبوّةِ على وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به» [41].

وهو ما أكدّه الطوسي من قبل في كتابه اللمع وجوابه عن سؤال متعلق بعد تخصيص الصوفية بعلم أو حال

كما جرت العادة في مختلف العلوم وقول الطوسي أنهم معدن جميع العلوم، ومحلّ جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة. . .»[42].

وهذه الوراثة التي تكلّم عنها الغزالي والعلوم التي أشار إليها الطوسي هي وراثة لقوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ القلم﴾/04، فلعلّ بعض التعاريف الاصطلاحية تُسعفنا في الوقوف على هذه الحقيقة، لذا ستكون التعاريف التي نتوقّف عندها ما يصبّ في هذه الحقيقة ويخدمها.

1 -محمد بن علي القصّاب[43]:

عرّف التصوّف بقوله: التّصوّف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام[44]

وفي هذا التعريف بيان لمصدر الأخلاق ومنبعها وهو الرجل الكريم سيد البشر محمد S ، والزمان الكريم هو عصر النبوة والرسالة، والقوم الكرام هم الصحابة –رضي الله عنهم-، وفي هذا التعريف تأكيد على استمداد أهل التصوف من مشكاة ونور النبوة، لذا كان الصوفية الوارثين الحقيقين لأحواله وأخلاقه، لذا نجد القرآن الكريم يقرّ بمكانة هذا الرجل الكريم وصحبه في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾الفتح/29 .

وجاء في تفسيرها: "وهذا الوصف الذي مَدَحَ اللهُ به الصحابةَ- رضي الله عنهم- مطلوبٌ من جميع المؤمنين. . . "[45].

2 -الجنيد[46]:

ذكرت مصادر التصوّف أقوالا عدّة لسيد الطائفة الإمام الجنيد، منها قوله وقد سئل عن التصوّف ما هو فقال هو: " تصفية القلب عن موافقة البريّة ومفارقة الأخلاق الطبيعيّة واخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلّق بالعلوم الحقيقيّة واستعمال ما هو أولى على الأبديّة، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله S في الشريعة "[47].

ومن أقواله أيضا في حديثه عن الصوفي الحقيقي وصفاته وأخلاقه فقد مثّله بالأرض التي يُطرح عليها كلّ قبيح ولا يخرج منها إلا كلّ مليح، أو كالأرض يطؤها البَّر والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء وكالمطر يَسقي كل شيء[48].

إن هذه التعاريف التي حدّ بها الإمام الجنيد التصوّف تحمل مضامين أخلاقية تربوية، فالتعريف الأول جمع فيه بين تصفية الباطن التي تُثمر تغيير الصفات الطبيعية وهي قوى النفسالغضبية والشهوانية، وإخماد الصفات البشرية بإطفاء نار شهوتها وإسكات صوتها، والتخلق والتحلي بمكارم الأخلاق، مع استصحاب مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يدلّ عليه مصطلح النُصح لجميع الأمة، وبهذا يَخرج التصوف من كونه عزلة وانفرادا وتقوقعا، وفيه ردّ على الرؤى التي تجعل من التصوّف طقوسا ورسوما لا علاقة لها بالفعل الاجتماعي والسياسي، أما في قوله الوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله في الشريعة دعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة أمرا ونهيا والمستمدّة من نور الوحي كتابا وسنة، وهو ما أكد عليه الجُنيد بقوله: " أنّ هذا العلم مقيّد بالكتاب والسّنّة "[49]

ومما يُلاحظ أيضا من خلال تلك الأوصاف التي قدّمها الجنيد عن الصوفي (الأرض – السحاب – المطر) فهو توظيف وتوصيف جميل، إذ أن اجتماع هذه الأوصاف أو المقدمات طريق للحياة المتجليّة في الزرع والنبات والعمران والخير الوفير، وهذا حال الصوفي نفّاع لغيره وأمته ووطنه يبني ولا يهدم، وفي هذا يقول الرسول S «**الْمُؤْمِنُ كَالْغَيْثِ**»[50]، وقوله S : «**خير الناس أنفعهم للناس**»[51]

3 -أبو محمّد الجريري[52]:

عرّف الجريري التصوّف بقوله: " **التصوّف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني** "[53]

وعرّفه أيضا بقوله: " **التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب** "[54].

تضمن التعريفان السابقان الدعوة إلى مكارم الأخلاق، فالخُلق السني، والسني المضيء ومنه قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ النور /43.

وجاء في لسان العرب: "وسَنَا البرقِ ضوْءُه، يُكْتَبُ بالأَلف وَيُثَنَّى سَنَوَان وَلَمْ يَعرفِ الأَصمعي لَهُ فِعْلًا. والسَّنَا، بِالْقَصْرِ: الضَّوْءُ " [55]. ومنه فالخلق الحسن كالنور لصاحبه يضيء حياته وطريقه.

وأما قول الجريري مراقبة الأحوال فدعوة إلى مراقبة الأفعال والحركات والخواطر بالرجوع إلى مقتضى الشرع والالتزام به، دون التعويل على ما ينقدح في نفس السالك، وقوله لزوم الأدب دعوة إلى عدم الخروج على حدود الشريعة، فالسالك يبدأ بالأدب وينتهي طريقه بلزوم الأدب أيضا.

4 -حمدون القصار[56]: دعا

حمدون القصّار في وصيته إلى صُحبة الصّوفية وعلّل ذلك بقوله: " إن لهم للقبيح وجوها من المعاذير [57]، وهذا

الوصف منبئ بالفضائل والقيم التي تحقق بها أهل التصوّف، ولا يُوجد خلق أرفع من التمساس العذر للصحب والإخوان عند الخطأ والزلات، واستصحاب هذا الخلق ينبئ عن حسن الظن وسلامة الطويّة وبُعد صاحبها عن التُهمة، وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي في إحيائه مبحثا دعا من خلاله إلى استصحاب مسلك العذر فقال: " فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه وإنما رأى غيره من حيث هوفإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدرفي حق كافة الخلق. . . "[58].

وقد ذكر هذا الخلق في القرآن الكريم والسنة النبوية، منها قوله تعالى في قصة الخضروموسى – عليهما السلام-: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾الكهف/76، وجاء في تفسيرها: " أي: قد أعذرتَ ووجدت مِنْ قِبَلِي عذرًا في مفارقتي، حيث خالفتك ثلاث مرات"[59].

5 - المرتعش[60]: قال عن التصوف أنه حُسن الخُلق[61]

وقد شرح الإمام الطوسي هذا القول وبيّن درجاته وأقسامه، وأعلاها مع الحقّ بأداء أوامره بلا رياء، وثانيها مع الخَلق بحفظ حرمة الكبار، والشفقة على الصغار، وانصاف الأقران، والإعراض عن الكلّ، والثالث مع النفس بعدم متابعة الهوى والشيطان[62]، وقد جاء في الوحي ما يؤيد هذا المعنى في أكثر من موضع، منها مدح الله لنبيه S بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/04، ومن السنة قوله S «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ محاسن

الأخلاق»[63]، وفيه أيضا عن مسروق «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا»[64].

وعليه كانت الأخلاق هي محور التصوف الإسلامي، وما الرسوم والأشكال إلا مظاهر وقشور، فجوهر الطريق الصوفي هو التحلية بمكارم الأخلاق والتخلية من الرذائل والآفات، ومداواة النفوس بإصلاح ما كمن فيها من أمراض وعلل وحملها على مقتضى الأمر والنهي، وهذا ما شرحه حديث جبريل السابق في بيان دوائر ومجالات الإسلام الثلاث (عقائد- شرائع- أخلاق)، لذا وقع الكثير في الوهم والخطأ حين اعتبروا التصوف أمرا زائدا يُمكن الاستغناء عنه، ولم يفرقوا بين الانتماء للطريقة، والالتزام بالآداب والأخلاق وظنوا التصوف شيئا يمكن الاستغناء عنه.

6 - أبو سعيد بن أبي الخير[65]:

يُعتبر سعيد بن أبي الخير المَيهني مؤسس نظام الزوايا والخانقاه في العالم الإسلامي، وقد كرّس حياته لتربية المريدين وإرساء القيم والأخلاق والفضائل في نيسابور في القرن الخامس الهجري، فقد أعطى للتصوف معنى تربويا ذا أبعاد اجتماعية، فقد أجاب حين سئل يوما عمّن يسير في الماء ويطير في الهواء فردّ على هذه الدعوى بقوله أن بعض الحيوانات تسير على الماء وبعضها يطير فهذه الأشياء لا قيمة لها، والرجل الجدير بهذا الاسم- صوفي- هو الذي يعيش مع الناس ويتعامل معهم ويختلط بهم ولا يغفل لحظة واحدة عن الله[66].

بل قدم أبو سعيد بن أبي الخير طرحا ورؤية جديدة للتصوف الإسلامي حين جعل حقيقته التقرّب إلى الحقّ بخدمة الخَلق، وفي هذا يقول:

«. . . وليس هناك طريق أقرب وأفضل وأسرع من العمل على راحة شخص، وقد سرت في هذا الطريق وإني أوصي الجميع به» [67].

وقد أثّرت طريقة أبي سعيد بن أبي الخير فيمن حوله، حتى الطوائف الدينية من يهود ونصارى كانوا يحضرون مجلسه ويستمعون إلى دروسه ومواعظه وأسلم الكثير على يديه، وكانوا يكنون له احتراما كبيرا ويقبلون يديه [68].

وهذا المسلك مستمد من مشكاة النبوة وسيرة خاتم الأنبياء محمد S ومعاملته لأهل الذمة في المدينة المنورة وكيف جعل لهم حقوقا مدنية واعترف لهم بحق المواطنة، بل تذهب كتب السنة إلى أنه S «**اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا بِنَسِيئَةٍ، وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ**»[69]

7 -عبد القادر الجيلاني [70]:

يُعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني من أقطاب التصوف في القرن السادس الهجري، جعل حياته وقفا لهداية الخلق إلى طريق الحقّ بمنهج التربية والتزكية، والقارئ لسيرة الرجل ومبادئ الطريقة القادرية يلمس الدرس الأخلاقي في خطاب الشيخ الجيلاني من خلال مؤلفاته، وقد كان التصوف في رؤيته مبنيا على الصدق والصفاء والزهد وترك الشهوات، لذا يتوجّه بنقد لاذع لمتصوفة عصره الذين جعلوا التصوف خِرقا ورسوما، ففي كتابه الفتح الرباني في المجلس الخامس والعشرين (25) يقول: " التصوف مشتق من الصفاء، يا من لبس الصوف الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخِرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الاصابع بالتسبيح والتهليل، إنما يجيء بالصدق في طلب الحق عزوجل والزهد في الدنيا

وإخراج الخَلق من القلب وتجرّده عما سوى مولاه عزوجل "[71].

4 - التصوّف الإسلامي من سلام الباطن إلى سلامة العوالم الخارجية – قراءة في الثمرات –

تأكيدا للمعاني السابقة التي تناولناها في ثنايا هذه الورقة حول مفهوم التصوف ومجاله وحقيقته، تتضح لنا بعض المعالم البارزة في الدرس الصوفي، والتي تشكّل أرضية وقاعدة للجانب الروحي والأخلاقي في الإسلام، ومما يمكن أن يُستفاد من الدرس الصوفي ما يلي:

1 - البعد التربوي للدرس الصوفي تقرير لما ورد في نصوص الوحيين – الكتاب والسنة-، وهو ما أقرته الآيات القرآنية، من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة/02.

فالتزكية مشروع وهدف رباني ونبوي وجزء لا يتجزّأ من الرسالة المحمدية

2 - ابتناء التصوف الإسلامي واستمداد أصوله من القرآن والسنة وأحوال النبي S ، وهو ما أقرّه الشيخ زروق الفاسي في قواعده، في القاعدة الرابعة (04) [صدق التوجّه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحقّ تعالى وبما يرضاه ولا يصحّ شرط بدون مشروطه﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الزمر/07، فلزم تحقيق الإيمان ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾الزمر/07، فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوّف إلا بفقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجّه...][72].

وعلى ضوء هذه القاعدة تتضّح ضرورة التصوف في الدّين كضرورة الفقه للمعاملات والعقائد للاعتقادات.

3 - ثمرة التصوّف إصلاح القلوب وسيرها إلى علّام الغيوب، وهو ما بيّنه الشيخ زروق الفاسي في قواعده في القاعدة 13، إذ يقول **[فائدة الشيء ما قُصد له وجوده، وإفادته حقيقته في ابتدائه أو انتهائه أو فيهما، كالتصوف علم قُصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سوى الله...]** [73].

ويُمكن أن نلمس ثمار التصوف في تلك الأجيال الربانية التي تخرّجت من الزوايا، وتربّت على أيدي رجال ربانيين عاملين، استطاعوا أن يوقظوا هممًا، فجمعوا بين السيف والقلم والسبحة، ولا أدل على ذلك من أعلام الإصلاح والدعوة في الجزائر أمثال الأمير عبد القادر الجزائري وابن باديس والشيخ بوعمامة، والمقراني والحداد وفاطمة لا لا نسومر وغيرهم كثير.

4 - تلازم صلاح الظاهر والباطن وتوقّف الأول على الثاني، وهو ما بيّنه حديث النبي **« أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»** [74].

وعلى هذا الأساس يُمكن أن يُساهم التصوّف في الحدّ من الجرائم والآفات الاجتماعية، فمن معاني التصوّف الصفاء، وصفاء الباطن مُثمر لصفاء الظاهر وسلامته، فمادام التصوف التزام بأحكام الشريعة والوقوف على مُقتضى الأمر والنهي كان الصوفي من هذا الباب وقّافا عند حدود الله ومحارمه، وهذا كلّه مُثمر لتفعيل المقاصد في أرض الواقع (حفظ الدين-حفظ العقل-حفظ النفس-حفظ المال-حفظ العرض)، وهذه

المقاصد الضرورية هي أساس الدين والدنيا: «**فَأَمَّا الضَّرُورِيَّةُ، فَمَعْنَاهَا أَنَّهَا لَا بُدَّ منها في قيام مصالح الدين والدنيابِحَيْثُ إِذَا فُقِدَتْ لَمْ تَجْرِ مَصَالِحُ الدُّنْيَا عَلَى اسْتِقَامَةٍ، بَلْ عَلَى فَسَادٍ وَتَهَارُجٍ وَفَوْتِ حَيَاةٍ، وَفِي الْأُخْرَى فَوْتُ النَّجَاةِ وَالنَّعِيمِ، وَالرُّجُوعُ بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ**»[75].

وعليه سلامة الباطن مُحققّة لسلامة العوالم الأخرى، وهو ما صرّح به الله تعالى في القرآن الكريم في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾الأنعام /82.

5-أُخوّة أفراد المجتمع، فيمكن أن نستلهم من التصوف الإسلامي هذا البعد الاجتماعي المستفاد من نصوص الوحي الشريف، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران /103.

ومن السنة قوله S :«**لَاتَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[76]

والتصوف الإسلامي مُشتق من الصفاء، لذا سعى أهل التصوّف للتحقق بأمر رسول الله S «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[77]

وهذا المعنى عبّر عنه أبو الفتح البستي شعرًا في قوله:

تنازع النّاس في الصّوفي واختلفوا
قدما وظنّوه مشتقّا من الصّوف
ولست أنحل هذا الاسم غيرفتى صافى
فصوفي حتى لقّب الصوفي

خاتمة:

بعد هذه الجولة في موضوع المضامين التربوية الروحية للتصوف الإسلامي قراءة تحليلية للدلالات الاصطلاحية للتصوف الإسلامي، نأمل أن تكون هذه الورقة قد أجابت عن الإشكالية المحورية والسؤال المركزي المتعلق بالبعد التربوي والقيمي لمشروع روحي أسسه أساطين التصوف الإسلامي من أجل بناء الإنسان تحلية بالفضائل وتخلية من الرذائل، ففيما عرضناه ردّ على تلك الرؤى التي رسم أصحابها صورة قاتمة عن التصوّف الإسلامي ناسين أو متناسين تلك السياقات المعرفية والسياسية التي نشأ فيها التصوف الإسلامي وتطوّر عبر الزمن، وفيه ردّ أيضا على مدّعي التصوف الذين حوّلوه إلى رسوم وطقوس وأشكال ونزعوا منه مضامينه التربوية فأضحى خِرقة بعد أن كان حُرقة وألما، وفيه تأكيد من جهة أخرى أن أرباب التصوف والمؤسسين الأوائل جمعوا بين السيف والقلم والعلم والعمل، ونأمل أن تكون هذه الورقة لبنة نحاول من خلالها أن نزرع الأمل في النفوس، ونعيد القلوب العقول الحائرة إلى رياض اليقين المتثّل في نور الوحي ونلين القلوب القاسية التي أغرتها المادّة وعصفت بها موجة المدنية، هذا كلّه من أجل مواطن صالح مُصلح فعّال يحمل قادوم العمل وسُبحة التصوف ورحم الله الحاج علي التماسيني التيجاني الذي جعل شعاره [السبيحة والمسيحة واللويحة حتى تطلع الرويحة]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

الهوامش:

1 - انظر: الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كاريل، ترجمة: شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ط 1993، ص 16 وما بعدها بتصرف.

2 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي – القاهرة، ط 1419، ج 03، ص 87.

3 - أخرجه البخاري عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، كتاب الإيمان، باب فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، رقم: 52

4 - انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط 02، 1975، ص16.

5 - انظر: ميزان العمل، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط01، 1964، ص 210 بتصرف.

6 - انظر: كتاب فيه ما فيه، جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب، دار الفكر دمشق +دار الفكر، بيروت لبنان، ط 01، 2002، ص 99 وما بعدها بتصرف.

7 - حظه من الألوهية إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾الحجر /29. ، وبهذا ينتفي وهم تأليه الإنسان.

8 -إنشاء الدوائر، محي الدين بن عربي، مطبوع مع عقلة المستوفز + التدبيرات الإلهية، ط مدينة ليدن، مطبعة بريل، سنة 1336هـ، ص 21.

9 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج 07، ص 309.

10 - كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر،

بيروت لبنان+ دار الفكر، دمشق، ص 247 وما بعدها.

11 - تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، ابن سينا، دار العرب للبستاني، القاهرة، ط02، بدون تاريخ، ص 64 وما بعدها.

12 - اللّمع، أبو نصر السّرّاج الطّوسي، تح: عبد الحليم محمود + طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر + مكتبة المثنى ببغداد، ط 1960، ص23.

13- مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّويش، دار البلخي+ مكتبة الهداية، دمشق، ط 01، 2004، ج 02، ص 225.

14 -الكشف: " بيان ما يُستتر على الفهم فيُكشف عنه للعبد كأنّه رأي عين" انظر: موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 01، 1999 م. مادة كشف، ص 790.

15 - المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1993، ص05.

16 - انظر: مدخل إلى التصوف، ، ص 12 بتصرف.

17 - أخرجه البخاري عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي S عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم: 50.

18 - قواعد التصوف، ص، 23.

19 - انظر: باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، محمد سعيد رمضان البوطي

20 - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط 1984، ج 28، ص 209.

21 - أخرجه مالك في الموطأ بلاغا

عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا، منها ما أخرجه أحمد في مسنده، والخرائطي في أول المكارم.

22 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط02، 1992، ج01، ص 158-157.

23 - البحر المديد، ج07، ص309.

24 - المحاور الخمسة في القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، بدون تاريخ، ص 167.

25 - انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 01، 1987، ص 09 بتصرف.

26 - الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 03، 2005، ص 18.

27 - ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي، دار الشروق، بدون تاريخ، ص 97.

28 - المرجع نفسه، ص 108.

29 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط 1991، ج 02، ص 212.

30 - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكيمبارك، ط 2012، ص 28-27.

31 - انظر: ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص 08 وما بعدها بتصرف.

32 - انظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية، هنري كوربان، ترجمة: نصير مروة+حسن قبيسي، عويدات للنشر، بيروت، لبنان، ط 02، 1998، ص 283 بتصرف.

33 - انظر: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، أبو العلا عفيفي، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص 27.

34- انظر: التصوف الثورة الروحية، مرجع سابق، ص 27 بتصرف.

35 - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، ط دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، ج03، ص 41.

36 - الرسالة القشيرية، ص 312.

37 - نقلا عن عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، دار المعارف، مصر، ط03، بدون تاريخ، ص 350.

38 - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أومرذولة، أبو الريحان البيروني، عالم الكتب، بيروت، ط02، 1403، ص27.

39 - قواعد التصوف، زروق الفاسي، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 2005، ص 21.

40 - الرسالة القشيرية، ص 312.

41 - المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، داروكتبة الهلال، ط1، 1993، ص05.

42 - انظر: اللمع للطوسي، مصدر سابق، ص 40 بتصرف.

43 - من أهل الطبقة الثانية صحب شيخ الطائفة الإمام الجنيد، كان الجنيد يقول: " وكان الجنيد يقول " الناس ينسبوني إلي سري، وإنما أستاذي هذا يعني القصاب "انظر: طبقات الصوفية، السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998، ص 129. وانظر: طبقات الأولياء، ابن

الملقّن، تحقيق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 02، 1994، ص 136.

44 - انظر: اللمع في التصوف، ص 45.

45 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج05، ص 408.

46 - الْجُنَيْد بن مُحَمَّد أَبُو الْقَاسِم الخزاز، يُقَال لَهُ القواريري أَصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق صَحب السّري السَّقطِي والْحَارث المحاسبي وَمُحَمّد بن القصاب الْبَغْدَادِيّ وَغَيرهم وَهُوَ من أَئِمَّة الْقَوْم وسادتهم مَقْبُول على جَمِيع الْأَلْسِنَةتوفّي سنة سبع وَتِسْعين وَمِائَتَيْنِ. انظر: طبقات الصوفية، السلمي، ص 129.

47 - التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، الكلاباذي، تصحيح: آرثر جون آربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 09.

48 -انظر هذه الصفات في: الرسالة القشيرية، ص 313 بتصرف.

49 - أُنظر في ذلك: التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، ص 19.

50 - أورده ابن الصّلاح في فتاويه ولم يجزم بصحّته"، فتاوى ابن الصّلاح، تح: موفّق عبد الله، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 01، 1407، ج 01 / 162.

51- رواه القضاعي عن جابر. انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، مكتبة القدسي، ط 1351، ص 393.

52 - من كبار أصحاب الجنيد صحب سهيل التستري، جلس مكان الجنيد بعد وفاته، مات سنة 311هـ، انظر: الرسالة القشيرية، ص 63.

53 - اللمع، الطوسي، ص 45.

54 -الرسالة القشيرية، ص 314.

55 - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ، ط 1414، ج 14، ص 403.

56 - أبو صالح حمدون بن احمد بن عمارة القصار منه انتشر مذهب المُلامتية بنيسابور، مات سنة 271هـ انظر: الرسالة القشيرية، ص 49.

57 - الرسالة القشيرية، ص 313.

58 - إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة – بيروت، بدون تاريخ، ج03، ص 36.

59 - البحر المديد، ج03، ص 293.

60 -أَبُو مُحَمَّد عَبْد اللَّهِ بْن مُحَمَّد المرتعش نيسابوري من محلة الحيرة وقيل: من ملقاباذ صحب أبا حفص وأبا عُثْمَان ولقي الجنيد وَكَانَ كبير الشأن، مَات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة. انظر: الرسالة القشيرية، ص 71 - 72.

61 -انظر: كشف المحجوب، ص236.

62 - انظر: كشف المحجوب، ص 237 - 238 بتصرف.

63 - رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

64- أخرجه البخاري عن مسروق، كتاب الأدب، بَابُ حُسْنِ الخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَمَا يُكْرَهُ مِنَ البُخْلِ، رقم: 6035.

65 - فضل الله بن أحمد بن على الميهنى، الزاهد العالم، أبوسعيد بن أبى الخير، صاحب الأحوال والكرامات، مات سنة أربعين وأربعمائة ببلده. انظر: طبقات الأولياء، ص 272.

66 - انظر: أسرار التوحيد في مقامات أبي سعيد، محمد بن المنور، ترجمة: اسعاد عبد الهادي قنديل، الدار المصرية للتاليفوالترجمة، بدون تاريخ، ص 228 بتصرف.

67 - المرجع نفسه، ص 226 227-.

68 -انظر: المرجع نفسه، ص 155 وما بعدها بتصرف.

69- أخرجه البخاري عن عائشة، كتاب البيوع، بَابُ شِرَاءِ الإِمَامِ الحَوَائِجَ بِنَفْسِهِ، رقم: 2096.

70 - عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، قطب العارفين. ولد سنة سبعين وأربعمائة، ومات سنة أحدى وتسعين وخمسمائة. انظر: طبقات الأولياء، ص 246.

71 - الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، دار الريان للتراث، بدون تاريخ، ص 115.

72- قواعد التصوف، ص 22.

73 - المصدر نفسه، ص 26.

74 - أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير كتاب الإيمان، باب بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، رقم: 52

75 - الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط01، 1997، ج02، ص 18-17

76 - أخرجه مسلم عن أنس، كتاب البر والصلة والآداب، باب بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّدَابُرِ، رقم: 2559.

77 - أخرجه البخاري عن أنس، كتاب الإيمان، باب بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، رقم: 13.

التنشئة الروحية للطفل الجزائري في الكتاتيب

حيزية كروش
سنة ثانية دكتوراه
جامعة حسيبة بن بوعلي
كلية الآداب والفنون
القسم: اللغة العربية

ملخص:

أتى القرآن الكريم مفعما بالآيات التي تنسج جسور السلم بين الأمم، وتعبد دروب التعايش بينها، فهو الدستور الذي حوى بنود الحياة وفق المجتمع الذي صبت فيه معانيه، وضبط تفاصيل السلام بناء على عقليات العرب التي تميزت في تلك الحقبة بالحمية والعصبية الجاهلية.

تسهم المؤسسات الدينية في تنشئة الطفل الجزائري، من خلال تزويده بجملة من القيم الروحية والدينية الفاعلية في تكوين شخصية مسلمة لها انعكاسات إيجابية على المجتمع.

الكتاتيب من أهم المؤسسات التي تعمل على تفعيل التعاليم الإسلامية، من خلال اعتبار الطفل الوعاء الأمثل لصب كل الأوامر والنواهي التي أتى بها الدين الإسلامي، فهي تهتم اهتماما مباشرا بالتربية الأولية القائمة على تلقينه كل المبادئ والقيم الروحية التي من شأنها الحفاظ على الهوية الإسلامية، وتكريس كل الآليات التي تضمن نشوء الطفل على مرتكزات سلمية.

يقوم المعلم في الكتاب بعدد من الأفعال التربوية التي من شأنها ترسيخ ثقافة السلم والتعايش لدى الطفل الجزائري، فهو يهدف إلى تكوين جيل قادر على بناء حياة سلمية قائمة على دعامات دينية.

الإشكالية: ما هي الكتاتيب؟ وفيما تتجلى فاعليتها التربوية؟ وهل يمكن القول بأن الكتاتيب قادرة على إعطاء القيم الروحية المطلوبة؟

الكلمات المفتاحية: الكتاتيب، الطفل، القيم الروحية، التعليم.

1/الواقع التاريخي للتعليم في الجزائر:

لطالما كان التعليم هو الشغل الشاغل لكل الأمم، حيث عملوا على تطويره وتحسين الطرق المؤدية إلى تكوين حضارة زاخرة بالعلوم، إلا أن البلدان النامية في دول العالم الثالث معروف عنها ذلك التراجع في المردود التعليمي جراء عوامل سياسية واقتصادية وسوسيولوجية، وأنثروبولجية...

ارتبطت حركية التعليم بالجزائر منذ عهد قديم بتعليمية اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم في مؤسسات خاصة تشرف عليها السلطة الحاكمة أحيانا ويتولى تسييرها وتموينها في أحيان كثيرة خواص من أهل الخير و الصلاح، وتنسب أحيانا أخرى إلى الزوايا ورجال الدين.

كان التعليم قبل الاحتلال الفرنسي جد متطور بالجزائر، حيث يتم عن طريق المدارس القرآنية كالمساجد والزوايا... الخ، والذي لعبت دورا مهما في تاريخ التعليم الجزائري.

لكن منذ الاحتلال الفرنسي سنة 1830، قام النظام الاستعماري باستخدام كل سلطاته لمصادرة الأوقاف حتى يصبح التعليم بدون

تمويل إلى جانب تهميش اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية، بالإضافة إلى الضغوطات الممارسة ضد المدارس القرآنية حتى ينقص من نشاطها، إلا أنها ظلّت صامدة.

كانت الأهداف التربوية نفسها لم تتغير طيلة الاحتلال الفرنسي رغم تغيير السياسات التعليمية من مرحلة لأخرى ومن نظام لآخر، وهي التي شكلت المدرسة الفرنسية بالجزائر، والتي كانت مهمتها تحقيق الأهداف الاستعمارية»[1].

وقد مر التعليم في الجزائر بثلاث مراحل، حيث تميزت كل مرحلة بنوعية خاصة من التعليم، وبنسبة مختلفة من حيث التحصيل الدراسي للتلاميذ عبر مختلف الأطوار التعليمية، إلا أن الكتاتيب والزوايا والمساجد كانت متواجدة في كل مرحلة منها، وهذه المراحل هي:

- **التعليم قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر.**
- **التعليم في عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر.**
- **التعليم في الجزائر المستقلة.**

أصعب مرحلة مر بها التعليم في الجزائر، هي مرحلة الاستعمار الفرنسي الذي اعتمد سياسية احتكارية اضطهادية، تجبر الجزائريين على تعلم اللغة الفرنسية، فالتشريع الفرنسي أصدر قراراً يقضي بتعليم الجزائريين حيث رصدت خمسة مراسيم ومنها مرسوم 8 مارس 1938 القاضي بغلق المدارس العربية الحرة، التي لا تتمتع برخصة ممنوحة من طرف الإدارة الفرنسية وتحديد معاقبة مخالفيها بالسجن، إلى جانب منشور ميشال 16 فيفري 1933 والذي ينص على منع الوعظ في المساجد لغير العلماء المعينين من قبل السلطات الاستعمارية[2].

لا يمكن التحدث عن الواقع التعليمي في الجزائري إلا بتتبع مراحله الثلاث التي سبق ذكرها، فكل مرحلة رصدت لنا الواقع السوسيولوجي الذي عاشته الجزائر، وبهذا ندرك تلك العلاقة الوطيدة القائمة في ميدان التعليم، والظروف الحياتية الأخرى.

2/ماهية الكتاتيب:

تتعدى السبل التعليمية للغة العربية، من حيث المكان والزمان والهيئة، والكتاتيب هي إحدى السبل الفعالة التي أسهمت في تعليم اللغة العربية، وتقويم اللسان، وخاصة في البلدان التي كانت تحت وطأة الاحتلال، على غرار الجزائر.

مرت الجزائر بحقبة مريرة من الاستعمال والاحتلال، حيث كان الاحتلال الفرنسي يعمل على هدم الكيان الجزائري من خلال محو الهوية العربية، منطلقا من محاولة طمس رموز العروبة، وأولها اللغة العربية التي كانت هاجس المستعمر الذي أنكب على تحطيم التعليم وفرنسته، وإنشاء جيل فرانكفوني خاضع لسلطة اللسان الفرنسي.

«إن التعليم المسجدي في قسنطينة كان قاصرا على الكبارولم يكن للصغار إلى الكتاتيب القرآنية، فلما يسر لي الله الانتساب للتعليم سنة 1913 جعلت من حملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم فكان ذلك أول عهد للناس بتعليم الصغار»[3].

من خلال تصريح ابن باديس نستشف بداية النشاط التعليمي في الكتاتيب، حيث كانت تركز على التربية اللغوية للطفل الجزائري، وكأنهم بذلك يتبعون بيداغوجية مبنية على المثل الشائع «التعليم في الصغر كالنقش على الحجر»، وذلك حتى يستقيم اللسان، وتترسخ العروبة في السيكولوجية الجزائرية.

والكُتاب وهو مكان من الأماكن الأولية لتعليم الناشئة القرآن الكريم والدين ومبادئ القراءة والكتابة والخط والحساب ويشرف عليها شخص يسمى (المطوع)[4].

أما الشخص الذي يدرس في الكُتاب فيسمى المكتب، كما يلقب أيضا بالمعلم حسبما ورد عن الجاحظ في «البيان والتبيين» وأما الصبي الذي يدرس في الكتاب فيسمى «المحصل» و«طال العلم» و «التلميذ[5]» .

3/ مميزات التعلم في الكُتاب:

يتميز التعليم الكتابي بخصائص لا تتواجد في المؤسسات التربوية الأخرى، فهو مبني على نمط إسلامي قائم على إعطاء الإيديولوجيات الدينية كلبنة أساسية لها البصمة الأكبر في تشييد الصرح التعليمي للمتعلم:

- تحفيظ القرآن هو الهدف الأول للتعليم في الكتاب، وبالتالي فإن تعلم اللغة العربية وسيلة حتمية للوصول إلى هذه الغاية.
- عمومية التعليم في الكتاب، فلا فرق بين غني وفقير بل هو مكرس لجميع فئات المجتمع
- مرونة التعليم في الكتاب، حيث يتماشى مع كل المؤثرات التي يتعرض لها المجتمع.
- بساطة التعليم الكتابي، من حيث التعليم والتعلم.
- تلازمية الكتاب والريف الجزائري، فهو كان بمثابة المدرسة اللاحكومية، فهو لا يحتاج لمناشير وزارية، ولا لقوانين تعليمية، بل هو تعليم طيّع لا يحكمه إلا المعلم الذي ينتهج منهجا عفويا يناسب المستوى الإدراكي لطلابه.
- ارتكاز هذا النوع من التعليم على اتجاهات نفسية دينية لدى المعلم

و هذه الاتجاهات توفر جوا خالصا للعمل والفعالية.

❖ إن الوسائل التربوية المستخدمة كاللوحة، و الحبر المحلي و أدوات المحو... الخ، هي أدوات زهيدة التكاليف، يمكن العثور عليها في البيئة المحلية.

❖ قدرة الكتاب على تربية جيل له مستوى علمي جيد، وخير دليل أولئك العلماء الأجلاء الذي كانت بداياتهم الأولى مرتكزة على التعليم الكتابي[6].

4/أهمية والتعليم في الكتاب في تنمية القدرات المعرفية للطفل:

يمثل التعليم المسجدي أهم الديناميات الفاعلة في تنشيط الحركة التعليمية، في كل المجتمعات الإسلامية، بل يمكن اعتبارها الأساس الأول لاكتساب الحس التعليمي، فغالبا ما نجد المتعلم الذي تربص في المساجد والكتاتيب يتميز بسمة تعلمية خاصة، والجزائر على غرار كل المجتمعات كان لها لمسة فريدة في مجال التعليم، فالمتقصي للتطورات الدياكرونية والسانكرونية للحركة التعليمية يجد أن هذه الأخيرة منبثقة من حلقات التحفيظ، وجمعات الكتاتيب التي يترأسها شيخ فصيح قويم اللسان.

للكتاتيب دور تاريخي لا يمكن إنكاره في تحفيظ القرآن الكريم وتفسيره، وكذا تلقين اللغة العربية، فعندما أغلقت فرنسا المساجد وعممت تعليم اللغة الفرنسية ، كانت الكتاتيب تشتغل خفية ودون انقطاع، لتنجب جيلا حافظا للقرآن الكريم، متميزا من حيث الفصاحة اللغوية، والإتقان لقواعدها وأحكامها، فالغاية الأسمى التي هدف إليها الكتاب هي المحافظة على أسس الدين الإسلامي من خلال تحفيظ القرآن.

بمقتضى هذا الهدف كانت النتيجة الحتمية لإثبات وجودية الأول وتفعيله في الحيز الاجتماعي هو تعليم اللغة العربية التي تعتبر إحدى ثوابت الأمة الجزائرية.

مر التعليم الجزائري بعدة عهود، وتدرج على جملة من المراحل، حيث تعد مرحلة الكتاتيب المرحلة البدائية في نظر البعض، إلا أنها تعد مراكز تعليم النشء أساسيات اللغة العربية والقراءة والكتابة، بل جزءا لا يتجزأ من المنظومات التربوية التي تنتهج سبلا بيداغوجية تقوم في غالبيتها على النمط التعليمي الشعبي.

الكتاتيب تؤدي رسالتها التعليمية والتربوية في حدود إمكانياتها المادية والفنية والبشرية وفي ظل وظيفتها الدينية، فقد كان الأطفال في الكتاتيب يُعلَّمون احترام اللغة العربية، خاصةً إذا كتبوا في ألواحهم آيات من القرآن الكريم، أو أحاديث النبي صل الله عليه وسلم؛ فقد قيل لأنس بن مالك الصحابي الجليل: «كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ قال أنس: كان المؤدب له أجانة[7]، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته (بترتيبه) ماء طاهرًا، فيصبُّونه فيها، فيمحون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون حُفرة في الأرض، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف. قلت: أفترى أن يلعط؟ قال: لا بأس به، ولا يُمسح بالرجل، ويُمسحُ بالمنديل وما أشبهه. قلت: فما ترى فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحوه برجله، ولا بأس أن يمحو غير ذلك مما ليس في القرآن».

ويمكن تلخيص أهم الخصائص في النقاط الآتية:

❖ الروح الجماعية: توفر الكتاتيب لطلبتها العمل في جماعات حيث تميز الجماعة بخلق تفاعل بين الأفراد، وتوفر أهداف مشتركة.

❖ الاشتراك: يتجلى في وجود هدف مشترك بين أعضاء هذه المدارس وتحقيق الانسجام والتفاهم.

❖ التنافس: بما أن هذه المؤسسات تسعى لتحفيظ طلابها القرآن، وتنشئتهم على جملة من القيم والمبادئ، فإنه من الطبيعي وجود تنافس من قبلهم يسمح بإشعال فتيل المثابرة بينهم، والاجتهاد مما يسهم في تعزيز قدراتهم، وتنمية مكتسباتهم.

❖ للكتاتيب دور تربوي يتمثل في إعداد المنصة الروحية التي تبنى عليها شخصيات الجيل.

❖ تنمية مدارك الطفل وتعليمه تعاليم الدين، وتزويده بالقيم الخلقية، والأخلاقية.

❖ فاعلية الكتاتيب في حفظ الهوية الثقافية للتلاميذ.

خاتمة: من خلال البحث نخلص إلى جملة من النتائج أهمها:

1/التعليم في الجزائر مر بعدة مراحل كان للاستعمار دور كبير في تحديدها.

2/الكُتاب يمثل أحد الركائز التعليمية التي اعتمد عليها الجزائريون في كل المراحل التاريخية التي مروا بها أثناء وبعد وحتى قبل الاستعمار.

3/بساطة الآليات التي يلجأ إليها كل من المعلم والمتعلم أسهمت في تيسير العطاء والأخذ داخل الحيز الديداكتيكي في الكُتاب.

4/الكتاتيب موروث ديني واجتماعي في المجتمع الجزائري.

5/تشكل الكتاتيب مرفقا تابعا للمساجد أو الزوايا، أو خيمة في

بادية صحراوية، أو بيتا بأحد الأحياء السكنية، خصص لغرض تحفيظ القرآن وتعليم اللغة والفقه، وتعتبر أحد أهم روافد مدارس التعليم العتيق.

6/ الكتاتيب قد أسهمت بقسطٍ كبيرٍ في صيانة الهوية الإسلامية للمجتمع الجزائري.

7/ تمثلت التعاليم الإسلامية واللغة العربية في رحاب الكتاتيب والحلقات التعليمية.

8/يأخذ الطفل من الكتاتيب قيما روحية تأهبه لحياة اجتماعية سلمية.

9/ تمنح الكتاتيب للطفل أساسيات متينة للتعامل مع الحياة المشتركة داخل الجماعات السوسيولوجية والتعليمية.

قائمة المصادروالمراجع:

1 - آسيا بلحسين رحوي، وضعية التعليم غداة الاحتلال الفرنسي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

2 - بكراوي عبد العالي، ومرشدي شريف، دور المدارس القرآنية – الكتاتيب- في الحد من ظاهرة العنف، فعاليات الملتقى الوطني حول دور التربية في الحد من ظاهرة العنف، ع04، مخبر الوقاية والأرغنوميا، جامعة الجزائر 02، 7/ 8/ 12/ 2011.

3 -رابح، تركي ، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر.- الجزائر، الشركة الوطنية 1981، ط1..

4 - زايد، مصطفى : المؤسسات التربوية القديمة في الجلفة. - الجزائر، مجلة الثقافية، وزارة الثقافة والسياحة،الجزائر، ع93 1986.

5 - عبد اللطيف العرابي وآخرون، معجم علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة ، دار البيضاء، المغرب. ط1، 1994.

6 - الكتاتيب في الخليج العربي - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، https:// ar.wikipedia، 12/02/2018 14:48.

7 - ناصر محمد، الصحف العربية الجزائرية من 1827 إلى 1939، الشركة الوطنية ، الجزائر، 1980.

الهوامش:

1 - آسيا بلحسين رحوي، وضعية التعليم غداة الاحتلال الفرنسي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

2 - ناصر محمد، الصحف العربية الجزائرية من 1827 إلى 1939، الشركة الوطنية ، الجزائر، 1980، ص132.

3 - رابح، تركي ، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر.- الجزائر، الشركة الوطنية 1981، ط1، ص.79.

4 - الكتاتيب في الخليج العربي - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، https:// ar.wikipedia، 12/02/2018، 14:48.

5 -عبد اللطيف العرابي وآخرون، معجم علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة ، دار البيضاء، المغرب. ط1، 1994، ص 16.

6 - ينظر: زايد، مصطفى: المؤسسات التربوية القديمة في الجلفة.- الجزائر، مجلة الثقافية، وزارة الثقافة والسياحة ،الجزائر، ع93 1986، ص.129.

7 - ينظر: بكراوي عبد العالي، ومرشدي شريف، دور المدارس القرآنية –الكتاتيب- في الحد من ظاهرة العنف، فعاليات الملتقى الوطني حول دور التربية في الحد من ظاهرة العنف، ع04، مخبر الوقاية والأرغنوميا، جامعة الجزائر 02، 7/8/12/2011، ص212 - 213.

دار الحديث بتلمسان ودورها في نشر القيم الروحية

د. راضية بن عريبة
قسم الأدب العربي
-جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف(الجزائر)

1-مدرسة دار الحديث بتلمسان:

مدرسة دار الحديث الكائنة وسط مدينة تلمسان عاصمة الزّيانيّين المتميّزة بطرازها المعماريّ العربيّ الإسلاميّ الفريد من نوعه في تاريخ الجزائر الحديث، والمسمَّاة على دار الحديث الأشرفيَّة الَّتي أسَّسها الملك الأشرف (ت:635هـ) من ملوك الدَّولة الأيُّوبيَّة بمصروالشَّام في دمشق الشَّام سنة (628هـ) تلك المدرسة التَّاريخيَّة الَّتي تخرَّج فيها أئمَّة في العلم وفحول في الأدب، كالحافظ ابن الصَّلاح، صاحب المقدِّمة في علوم الحديث، وهو أوَّل من وليها ومن درَّس الحديث فيها، والحافظيّن المزّي والنَّوويّ وغيرهم

وهذه المدرسة بتلمسان يرجع الفضل في فكرة تأسيسها إلى أمير البيان الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي رحمه الله وقد شارك بنفسه في تخطيطها وقام بتشييدها، حتَّى إنَّه كان يشرف على العمَّال بنفسه، وأسهم أهالي تلمسان رجالاً ونساءً بأموالهم وسواعدهم في بناء هذا الصَّرح العلميّ من بدايته حتَّى نهايته[1]

البناية مكَّونة من ثلاثة طوابق، تحتوى على قاعة متَّسعة معدَّة لإقامة الصَّلوات، وفوقها قاعة لإلقاء المحاضرات، وفوقها بناء يحتوى على أربعة أقسام.

صورة عن بناء دار الحديث

2 - تعريف القيم الرّوحية:

ركّز الإسلام على الجانب الروحي للإنسان، ويتجلّى هذا في الخطاب الإلهي له في القرآن الكريم، وتركيز السنة على الأخلاق، والحث عليها، من هنا نستطيع تعريف القيم الروحية في الدين الإسلامي على أنها مجموع الأخلاق والفضائل والعبادات، التي تخاطب باطن الإنسان وكيانه الداخلي، وتنظم علاقته مع ربّه ونفسه ومجتمعه، واستناداً إلى كونها معتمدة على القرآن والسنة فهي ثابتة وشاملة ولا تتأثر بالزّمان أو المكان.[2]

3 - مظاهر التّحلي بالقيم الروحية :

من مظاهر القيم الروحية نذكر ما يلي:[3]

- تحقيق استقرار النفس وسلامها وسعادتها.

- تخليص المجتمعات من الآفات التي قد تدمّرها؛ كالسرقة والقتل والظلم.

- ترابط الأفراد في المجتمع، وسموّ الروابط الروحية، كالحب والصداقة والأخوّة.

-زيادة إنتاجية الأفراد، وسعيهم نحو صلاح المجتمع الذي ينتمون إليه وخدمته.

-الحد من انتشار الفقر، بزرع قيم التكافل والتعاون الاجتماعي.

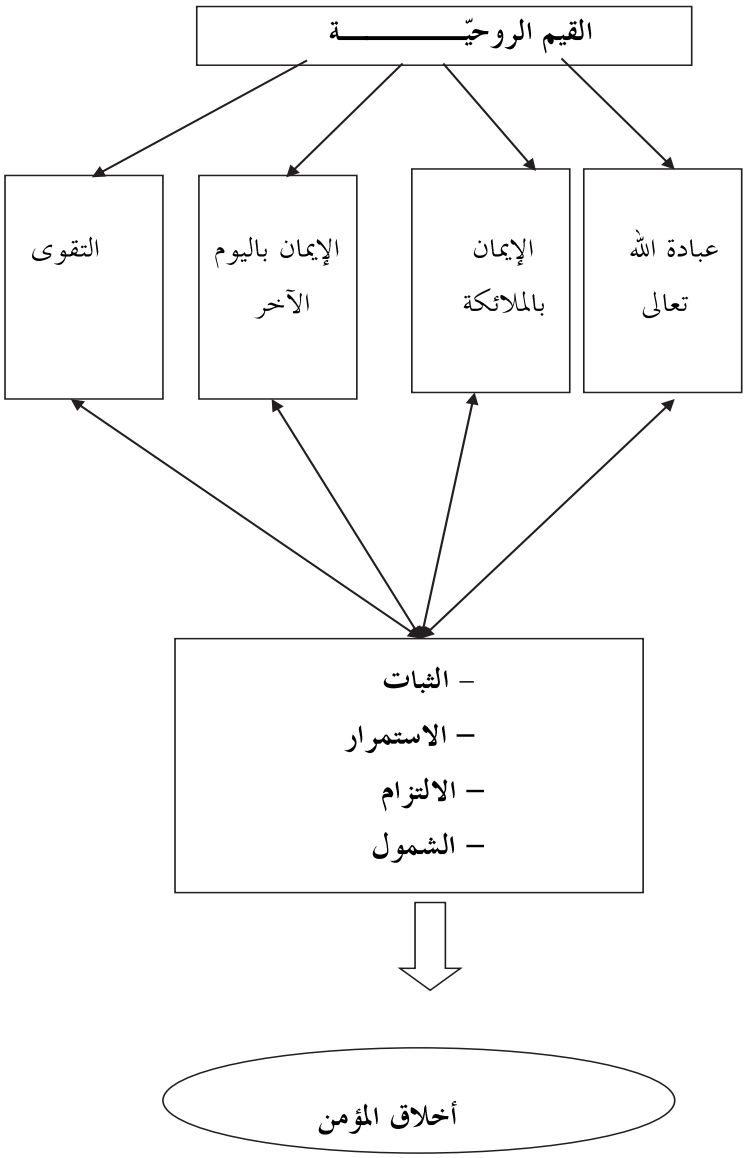

- تقدّم المجتمع ورفعته بصلاح أفراده.

وتستند القيم الروحيّة على ثنائية أزليّة : القرآن الكريم والسنة النبويّة الشّريفة. حيث أنها تستقي منهما ضوابط الحياة المرتكزة على عماد الأخلاق .

4 - القيم الرّوحية بدار الحديث ومبادئ جمعية العلماء المسلمين:

1*تعريف بجمعية العلماء المسلمين :

.نشأتها:

تكونت جمعية العلمّاء المسلمين الجزائريين في الخامس من شهر ماي1931م[4]، و قد تولّى رئاستها منذ البداية الشيخ عبد الحميد بن باديس باعتباره رائد الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر، واستمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته عام 1940 يذكر الشيخ البشير الإبراهيمي نائب رئيس جمعية العلماء لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة لما وجدنا في الجزائرمن يسمع صوتنا، وقد قامت جمعية العلماء بقيادة ابن باديس على رأس مائة عام من الاحتلال الفرنسي للجزائر عنوانا على الثبات في المقاومة والكفاح ودليلا على الصمود في الجهاد، و برهانا على إصرار الجزائريين في الاحتفاظ بطابعهم العربي الإسلامي الذي لا يمكن القضاء عليه كما كان المستعمرون و المبشرون يحلمون في ذلك الوقت[5].

2*مبادئها في نشر القيم الروحية :

مبادئها كما لخّصها الإمام ابن باديس هي (العروبة، الإسلام، العلم،الفضيلة) و قال أنها أركان نهضتنا .

و أركان جمعية العلماء المسلمين التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا،

فجمعية العلماء في رأيه هي التي تحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة وقد جاء في الفصل الرابع من قانونها الأساسي أن القصد من وراء هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور... و من هنا حاربت الجهل والجمود والخرافة وكل أنواع الأباطيل كما حاربت من جهة أخرى كل من يقف في وجه التعلم والتعليم سواء باللغة العربية أو الأجنبية[6].

انطلقت جمعية العلماء من هذه الأسس تعمل على إحياء المجتمع الجزائري وإعادة بنائه من جديد وتوجيه وفق منهج العقيدة الإسلامية فبدأت لذلك دعوتها من الإنسان بإعادة بنائه من الداخل بتكوينه نفسيا

وعقليا وتصحح مفهومه للعقيدة والحياة، والكون من حوله وبيان دوره فيها حتى يعي ذاته ويميزها عن ذوات الآخرين لأن الإصلاح الحقيقي الناجع هو ذلك الذي ينطلق من النفس الإنسانية مصداقا لقوله تعالى:﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[7].

وانطلقت الجمعية من هذا الإيمان تدعو إلى صحة العقيدة واستنارة الفكرة، وطهارة النفس، وكمال الخلق واستقامة العمل وذلك بالرجوع بالإسلام إلى متابعة الأولى و تعاليمه الصحيحة انطلاقا من القرآن الكريم

والسنة النبوية الشريفة و هدي السلف الصالح مجتهدة في الحرص على إحياء تلك الأصول في العقول وفي السلوك ساعية إلى تصفيتها مما يكون قد غشيها من تزوير وضلالات مؤكدة في الوقت نفسه[8].

تعتبر جمعية العلماء حركة روحية إصلاحية من جهة وحركة قومية من

جهة أخرى فهي حركة روحية إصلاحية كونها كانت تعمل على مكافحة البدع والخرافات المنافية للدين وتطالب المحافظة على صبغتها الإسلامية وذلك بالرجوع إلى تعاليم القران الكريم والسنة النبوية الشريفة وعمل السلف الصالح،وهي حركة قومية باعتبارها كانت تقاوم الاحتلال من أجل تحرير الجزائروتطالب الجزائربالمحافظة على طابعه القومي[9].

3 - القيم الرّوحية بدار الحديث

الدّار التعليمية والجامع صنوان من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبي صلى الله عليه و سلم يوم استقرفي دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، لما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فلا مسجد بدون تعليم.

وهذا حال دار الحديث التي تعتبر مدرسة تعليمية ذات أبعاد تربوية وقيم روحية منذ أن تأسست

فأقبل الطلبة على دروس أئمّة الدار ينهلون من معينها بكل جهد واجتهاد وقد أثرت هذه الدروس تأثيرها العميق في أنحاء المدينة، مما أدى إلى انتشار الوعي الأدبي و الإصلاحي في تلمسان وخارجها.

فقد كان الشيخ ابن باديس يدرك أن ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلاّ عن طريق التربية الروحية،و أنّ هذه التربية لا تكون مجدية إلاّ على أساس من تصحيح العقائد و تقويم الأخلاق[10].

و يمثّل المسجد الموجود في الطابق الأول المزوّد بالبسط والسجاجيد والستائر وجميع أنواع الأثاث المخصّصة له - مفروش ومزخرف

على الطريقة المغربية - أهمّ أركان المدرسة ويؤمه إمام من المدينة ،تقام فيه الصّلوات الخمس يوميّا أما صلاة الجمعة فتتميّز بالجمع الكثير والدّرس المفيد والخطبة البليغة الدّاعية إلى الوعظ والتّذكير والإصلاح والفلاح.

وهناك جزء من الطابق خصص للمدرسة القرآنية لتحفيظ الكبار والصغار المصحف الشّريف وتعتمد على الأسلوب القديم كاستعمال اللوحة والقلم (الحبر) والصلصال (نوع من الطين لمسح اللوحة) ، ويجزّأ الحزب على أثمان أو أرباع يكتب على اللّوحة وغالبيتها يكتب بالثّمن ليسهل الحفظ على الحفّاظ ويتابعه المحفّظ (الملقّن) في ذلك إلى أن يختم جميع المصحف الكريم .

هذا عند بعضهم أما عند البعض الآخر فيحبّذ الحفظ على المصحف الشريف الورقي وغالبا ما يكون برواية ورش عن نافع متتبعا أحكامه في ذلك .

وتقام الولائم لمن يختم المصحف في جوّ ديني تعمّه الأنوار والأفراح .

- **أهداف دار الحديث:**

أما أهدافها التي كانت ترمي إلى تحقيقها فيمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- تطهير الدين الإسلامي مما لحق به من خرافات وبدع منافية للدين في عصور التأخر التي اعترت المسلمين لعدة قرون و محاولة إيقاد الشعلة الإيمانية الوهاجة في القلوب.

- إحياء اللغة العربية، و ثقافتها، والعمل على نشرها في البلاد .

- العمل عن طريق خفي تحت ستار تعليم الدين والوعظ والقضاء على السياسة الفرنسية والتنصير والتجنيس و الإدماج التي يسير عليها الاحتلال في الجزائر.

- العمل من أجل استقلال الجزائر وضمها إلى الأسرة العربية الكبرى[11].

-المحافظة على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الثقافية، الحضارية والدينية والتاريخية والوطنية ومقاومة الاحتلال الرامية إلى القضاء عليها.

صورة تذكارية لأعضاء جمعية العلماء المسلمين والشعب التلمساني أمام مدرسة دار الحديث

التهميش :

1 -ينظر : مدرسة دار الحديث بتلمسان كما أرادها الشَّيخ البشير الإبراهيمي - رحمه الله - بقلم: الشَّيخ عزّ الدِّين رمضاني – حفظه الله – مجلة http://www.ajurry.com/vb/showthread.php الإصلاح –ع :20 -على الرابط :

http://mawdoo3.com: - على الرابط دانية عساف.

2 -ينظر: مفهوم القيم الروحية لغة واصطلاحاً- بتاريخ :04 /03 - 2018 في الساعة 13:00سا

3 - ينظر المقال الرابط الإلكتروني نفسه.

4 -تركي رابح-التعليم القومي والشخصية الوطنية-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، برج الكيفان،1395-1975/ -ص201

5 - المرجع نفسه، ص153

6 - المرجع نفسه- ص 203

7 - سورة الرعد الآية 11

8 -مجلة التذكير ابن باديس التاريخ واللغة والدين، العدد 17، شوال 1410، 1990، ص12

9 - تركي رابح-مرجع سابق ص 204

10 - سجل جمعية العلماء المسلمين، قام بطبعه ونشره المجلس الإداري جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المنعقد بمركزها العام نادي الترقي بالجزائر، قسنطينة رائد النهضة العلمية الفكرية، ص26 - 27 .

11 - تركي رابح-مرجع سابق ص 204.

الوظيفة التربوية لفكر ابن باديس ودورها في إحلال السلم

د. بن دنيا سعدية
جامعة مستغانم

الملخص:

لقد قدّم المفكر والمُصلح الجزائري عبد الحميد بن باديس مشروعا فكريا وحضاريا من خصائصه الأساسية المحافظة على الخصوصية الدينية والثقافية للمجتمع الجزائري والانفتاح على الخصوصيات الأخرى، حيث تركّزت جهوده الفكرية على النواحي التربوية للمجتمع وكيف يمكن استثمار النصوص الدينية في إحلال السلام بين الأفراد والمجتمعات، إذ قد أدرك جليّاً أن عدم التسامح لا يفضي سوى إلى التطرّف والتعصب بين أفراد المجتمع الإسلامي ويزيد من حدّة الصدام والصراع بينهم وبين المجتمعات الأخرى، ولذلك دعا إلى اعتماد التسامح والصفح سبيلا لحقن دماء المسلمين ولمّ شملهم وصون أمنهم وإحلال التعايش السلمي مع الآخر المخالف لهم، والمبدأ الموجّه للتسامح في رأيه قائم أساسا على الاعتراف بالآخر وإيفائه حقوقه واحترام مقدّساته الدينية وحقّه في

الاختلاف والتسليم بمنطق التعايش والتنوّع الديني والإثني.

ومن خلال هذه الرؤية الرصينة في منهج التربية الروحية، أسّس ابن باديس لفلسفة المصير المشترك مع الذات ومع الآخر، واستثمر بامتياز في مبادئ السلام والتسامح ليقدم نموذجا نوعيا عن تلاقي الأفكار والآراء في مجال حواري وفكري خصب يعبّر عن رؤية مميزة للتفاعل بين القيم الدينية الروحية المتوطّنة داخل المؤسسات التربوية والدينية، وعليه يهدف عملنا إلى إلقاء الضوء على الأفكار الحضارية التي يطرحها ابن باديس في رصده للعلاقة السلمية بين الأفراد تنظيرا وممارسة، وكذا بيان مدى الحاجة إلى رؤاه الاستشرافية وتفكيره الوسطي المعتدل المتجدّد مع الواقع في حل الأزمات الراهنة.

الكلمات المفتاحية: التسامح، الأنا، الآخر، السلم، التعايش، الاعتراف، الإنسانية، التربية الروحية.

مقدمة:

لقد بحث العلامة عبد الحميد بن باديس في قضايا الفكر المختلفة الدينية والثقافية وطرق المجال التربوي والتعليمي، وكرس حياته للدفاع عن حقوق الأمة السياسية والوطنية، وناقش مسائل الهوية والحفاظ على الكينونة الإسلامية وهو إلى جانب ذلك عالم وفقيه ومربي لم يحصر نفسه في تخصص بعينه، وفضلا عن اهتمامه بقضايا عصره اهتم أيضا بقضايا إنسانية كثيرة من أهمها جدل الأنا والآخر، إذ حاول حل المسائل الخلافية والمشاكل العالقة الناجمة عن العلاقة مع الآخر المختلف عقائديا، وهي قضية تمتد في

عمقها إلى المشاكل التي تواجه الإنسان العربي راهنا على التماس مع حدود الأنا الدينية أو العقدية، وتتعلق بواقع الراهن الدولي الذي يشهد سجالا كبيرا حول السلم العالمي، وتناميا كبيرا للعنف والتطرف وتصعيدا خطيرا للعنصرية والتعصب. فكيف بحث المفكر عبد الحميد بن باديس العلاقة بين المنظومة الدينية الإسلامية والآخر الحضاري؟ كيف نظر لجدل العلاقة بين الأنا والآخر؟ ما هي الحلول التي يقترحها لإحلال السلم والتسامح[1] بين الأديان وإشاعة الحوار والتعايش بين الدول والحضارات؟ وما هي رؤاه الاستشرافية للمآل الراهن؟

أولا: المشروع التربوي الباديسي الإصلاحي:

التربية الروحية في منهج عبد الحميد بن باديس التربوي الإصلاحي:

على الرغم من أن الشيخ عبد الحميد بن باديس خاض تجربة سياسية مميزة منذ مطلع شبابه من خلال دوره الرائد في نشر الخطب والمقالات السياسية الهادفة، وعلى الرغم من تصديه المستميت لسياسة فرنسا الاستعمارية، إلا أنه لم يكن متفرغا كليا للسياسة وركز في مشروعه الإصلاحي على التربية الروحية لاعتقاده الراسخ بأن ما تعانيه الأمة من أزمات، لا يجد حلوله الناجعة في الحل السياسي وحده، وإنما في المنهج التربوي الروحي الذي يقوم عليه صلاح الفرد والمجتمع روحيا وعقليا

وسلوكيا، فهذا المنهج –في رأيه- هو الذي يخدم الأمة ويعزز قيمها ويحيي ثوابتها الروحية الأصلية، ولهذا تركزت جهوده على إصلاح النفوس وتقويم السلوك وتحرير العقول من شوائب الجهل وبراثن البدع والخرافات.

ولذلك رأى أن اللبنة الأساس للنهوض بالأمة وتحقيق رقيها الفكري والحضاري، هي التربية الروحية للأفراد، وهي –في اعتقاده- مهمة عويصة تتخللها الكثير من العقبات والصعاب، وذلك لأن بناء الإنسان وتهذيبه وتقويمه من أصعب المهام المنوطة بالأمة وأكثرها جسارة، لما يكتنف الطبيعة البشرية من صعوبة وتعقيد. وقد أولى في هذا السياق تركيزا كبيرا على العناية بباطن النفوس لدوره الفعال في الامتداد إلى الظاهر ومن ثمة إلى المجتمع.

وفي ذلك يقول ابن باديس: «إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»[2]، فالتربية الروحية القويمة، بالتركيز على الباطن، هي السبيل الأمثل لغرس القيم الروحية في أفئدة الشباب وترقية سلوكهم وتطهير نفوسهم.

وقد كانت طريقة في التربية هي توعية هذا النشء بالفكرة الصحيحة، وهي الطريقة التي يخبرنا عنها الشيخ البشير الإبراهيمي بأنها كانت محل اتفاق وإجماع بينهما في المدينة قائلا: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها سنة

1913، في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة»[3].

لقد أدرك العلامة عبد الحميد بن باديس بأن الإصلاح والتغيير لا بد أن يكون منطلقه من كتاب الله الشامل الجامع للأحكام ومن سنة نبيه المصطفى العدنان، «الأمر الذي يمكن من إعادة صياغة الإنسان وإعادة تشكيله، باعتباره أداة التغيير وهدفه في وقت واحد»[4]، حيث يقول: «إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكروتدبروتشاور وتتأثروتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة...»[5].

ومن ثمة فإن المهمة الأولى في منهجه الروحي الإصلاحي هي «التربية بالقرآن» التي لها دور فعال في تربية أفراد المجتمع على مكارم الأخلاق والعقيدة الصحيحة، بحيث يقول: «إننا نربي –والحمد لله- تلامذتنا على القرآن، ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم وفي كل يوم»[6]، ولأنه لا غنى للقرآن عن السنة «لأنها تفسيره وبيانه»[7]. يقول ابن باديس لا بد من «التفقه فيه (أي القرآن)، وفي السنة النبوية: شرحه وبيانه»[8]، وهنا يتوقف شيخنا الجليل ليوضح أن القرآن ليس ذكرا للحفظ فقط، وإنما «فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام»[9]، فهو زاد للمعاش، وذخر للمعاد، «شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده»[10].

وهو لا ينقطع عن شؤون الحياة وقد أوضح ابن باديس في هذا الإطار أن «مشاكلنا في الواقع ومشاكل في البشرية كلها تعرض على القرآن الكريم، ثم نرى أيوافق عليها أم لا يوافق»[11]، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأساس المتين لإصلاح المجتمع والنهوض بالأمة، وهما السبيل الأمثل نحو التقدم والرقي.

فلسفة عبد الحميد بن باديس التربوية الإصلاحية:

بالإضافة إلى التربية الروحية ركز العالم والمربي الفاضل عبد الحميد بن باديس في مشروعه التربوي الإصلاحي على إصلاح المنهج التعليمي، والذي لا يصلح إلا بصلاح العلماء، وتأديتهم لدورهم ورسالتهم على أتم وجه، بحيث يقول في جريدة الشهاب: «لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم. فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد الجسد كله... فإذا أردنا إصلاح المسلمين، فلنصلح علماؤهم»[12]، فللتعليم قدرة كبيرة على غرس القيم الروحية السامية في الناشئة وإرساء العقيدة الصحيحة لكي يرسوها بدورهم إلى الأجيال القادمة، ولذلك حظي مجال التربية والتعليم باهتمام بالغ لدى ابن باديس الذي بذل جهودا مضنية لتطوير مناهج وأنظمة التربية والتعليم في الجزائر. وقد سأله يوما أحد تلامذته، «بأي شيء تحارب الاستعمار؟ فأجابه على الفور: «أنا أحارب الاستعمار لأنني أعلم أهذب»[13]، وعلى الدرب نفسه سارت جمعية العلماء المسلمين مولية للتربية والتعليم اهتماما كبيرا في توجهها الإصلاحي والحضاري.

لقد آمن عبد الحميد بن باديس بأهمية التعليم في تربية المجتمع والأفراد ودوره الفعال في إحداث تغيير شامل للنهوض بالشعب الجزائري وبعث قيم الأمة وثوابتها الروحية من جديد، فالتعليم في رأيه هو الذي يهذب الشعوب وينهض بالأمم ويقودها في طريق التقدم والتطور و «ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني ويظهر كيانها بين الأمم»، ولذلك عمل على تنقيح وتجد يد المناهج التربوية السائدة آنذاك وربطها بالأخلاق، حيث أن التربية الأخلاقية القويمة هي التي تقوم بتربية النفوس وتهذيبها، ومن ثمة سعى جاهدا إلى إعداد وتكوين العلماء الذين يتكفلون بتعليم أشبال الأمة أخلاقيا وعلميا، إذ يعتقد أن صلاح المسلمين مرهون بصلاح علمائهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، وفي هذا الصدد يقول ابن باديس «إذا كانت الأمم بالأخلاق، والأخلاق بالتربية، فالأمم بعلمائها الذين يقومون على تربيتها، وتهذيب أخلاقها وتوجيهها نحو الخيروالكمال»[14]، فالتعليم القائم على الأخلاق هو الذي يحفظ للأمة بعدها العقدي والروحي ويحمي أفرادها من الأخطار المحدقة بهم من قبل المشروع الاستعماري الصليبي، ويبقيهم في منأى عن مخططاته الرامية إلى التنصير والفرنسة والإدماج.

إن الفكر الإصلاحي الباديسي يصدر عن فلسفة تربوية توقن أن إعداد الشعب الجزائري روحيا وتربويا وأخلاقيا وتكوينه ثقافيا وسياسيا هو الحل الاستراتيجي الذي يمكن الجزائريين من تحقيق استقلالهم عن فرنسا، ذلك أن النخب العلمية هي التي

ستتسلم المشعل وتتحمل عبء النهضة والتحرير في الغد القريب، ولذلك قام ابن باديس بثورة تعليمية وتربوية أدت إلى تجديد حركة التعليم في الجزائر عن طريق الدروس والمحاضرات والمقالات وحلقات الحفظ، ورابط عمليا لسنوات طويلة بمسجدي سيدي قموش والجامع الأخضر يمضي معظم نهاره وجزءا كبيرا من ليله في التربية والتعليم والإرشاد والتكوين، وقد كللت جهوده بتخريج جيل متميز من الجزائريين المتعلمين الذي كان له دور حاسم في حمل لواء ثورة التحرير.

وقد أثنى الشيخ البشير الإبراهيمي على هذه التجربة التعليمية الرائدة بقوله: «الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية، والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه. والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيح، وعقول نيرة، ونفوس طامحة وعزائم صديقة وألسن صقيلة».

ثانيا: دور الفكر التربوي الباديسي في إحلال السلم والتسامح:

لقد سعى المفكر والإمام المصلح عبد الحميد بن باديس من خلال مشروعه التربوي الإصلاحي إلى المحافظة على الشخصية الثقافية الجزائرية، إذ حرص على الدفاع عن الدين الإسلامي وتجديده وإحياء اللغة العربية والتصدي لسياسة التنصير والفرنسة، غير أنه لم يحصر

فكره ضمن الحدود الضيقة للذات، بل سارع إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى ودعا إلى اعتماد التربية الروحية المنضبطة بقيم الكتاب والسنة ومنهج التربية والتعليم القائم على الأخلاق سبيلا لتعزيز قيم السلم والأمن والطمأنينة والتسامح، ومحاربة دعاوى التعصب والكراهية والتطرف. وهو يجمع في فكره بين العقيدة والعمل ولذلك نجد مشروعه التربوي ينطلق من الكتاب والسنة ولا يخرج عن واقع المجتمع الجزائري العربي المسلم بكل مشاكله وتحدياته، لكنه يمتد من جهة أخرى من الخصوصية الجزائرية إلى عالمية القيم الإنسانية. مثل نحو التقدم والرقي.

1. النزعة الإنسانية في الفكر الباديسي:

لقد قدم ابن باديس مشروعا فكريا وحضاريا من أهم أولوياته الحفاظ على الخصوصية الإسلامية والانفتاح على الخصوصيات الأخرى، إذ يهدف أولا إلى تحقيق النهضة لوطنه الأم الجزائر، وكذا بحث كل القضايا التي تمت بالصلة لقضايا عالمه العربي والإسلامي، ولذلك كان يرى دوما أن خدمة الجزائر مرتبطة أساسا بخدمة العقيدة الإسلامية التي جاءت للبشرية جمعاء، فبالموازاة مع انشغاله بمشاكل شعبه وهمومه أبدى اهتماما بالغا بقضايا الأمة العربية والإسلامية من خلال الانتصار إلى القومية العربية وعالمية الإسلام وهو يقول في هذا الصدد: «ليس ما ندعو إليه ونسير على مبادئه من الإصلاح، بالأمر الذي يخص المسلم الجزائري ولا ينتفع به سواه كلا، فإن صحة العقيدة واستنارة الفكر، وطهارة النفس، وكمال الخلق،

واستقامة العمل، وهذا هو الإصلاح كله مما يشرك في الانتفاع به جميع المسلمين بل جميع بني الإنسان، وإنما نذكر الجزائري لإشعاره بوجوده، فيعمل لإسلامه وجزائريته، فيكون ذا قيمة ومنزلة في المجموع»[15]. ومن ثمة فإن العروبة، والإسلام والانتماء الحضاري إلى الإنسانية هي المقاصد الرئيسة التي يسعى إلى تحقيقها من خلال مشروعه الفكري.

بيد أن مهمته لم تكن سهلة أبدا نظرا للعراقيل التي وضعتها فرنسا في طريقه والتضييق الشديد الذي مارسته على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بهدف القضاء على عروبة الجزائر وإسلامها، ومع ذلك رفع عبد الحميد بن باديس سلاح العروبة والإسلام في وجه المستعمر الطاغي، محاربا بعزيمة لا تلين، كل ما يمس عروبة الجزائر وإسلامها، ومنفتحا على عالمه العربي والإسلامي بآلامه وأماله على الإنسانية جمعاء[16].

لقد اضطلع عبد الحميد بن باديس بمهمة الدفاع عن الهوية الوطنية وخدمة الإنسانية وأهدافها السامية في آن الوقت، وهو يقول في هذا الصدد: «إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونقلها دون واسطة، فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع»[17]، فما هي هذه الوساطة؟

إن الإسلام في رأي ابن باديس هو هذه الواسطة، هو الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها، ومن ثمة اعتبره دنيا للإنسانية، فقال: «ونحن لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها.. فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام - وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله –علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به.. فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته. فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها، في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله فهذا هو معنى قولي إنني أعيش للإسلام»[18]. وهكذا وانطلاقا من أفقه الفكري البعيد يدعو عبد الحميد بن باديس إلى النزوع إلى الإنسانية في أسمى معانيها ويعتقد أن الإسلام كتشريع رباني كفيل بتحقيق هذه النزعة لأنه يتوجه إلى الإنسانية جمعاء، ومن ثمة كان حريا بنا أن نمضي إلى احترام الإنسانية والسعي إلى ترقيتها وتقدير النوع الإنساني الذي ينتمي إليها.

لكن هل نفهم من كلام ابن باديس إذ هو يثني على الإسلام أنه يقصي الآخر المختلف دينيا أو عرقيا وينظر إلى باقي الديانات نظرة حقد وازدراء؟

2. التقريب بين الأديان عند عبد الحميد بن باديس:

يذهب ابن باديس إلى اعتبار الإسلام دين الرحمة والإنسانية

فيقول: «أعيش للإسلام والجزائر. غير أنه يسترد ليوضح. وقد يقول قائل إن هذا ضيق في النظر، وتعصب للنفس، وقصور في العمل، وتقصير في النفس، فليس الإسلام وحده دينا للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حق الاحترام»[19].

لقد دافع عبد الحميد بن باديس عن الإنسانية، وعن «الإسلام الذي هو دين الله الذي أرسل به جميع رسله لقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(آل عمران الآية 19)»[20]، وسعى في الوقت نفسه إلى التقريب بين الديانات المختلفة وزرع المحبة بين أفراد المجتمع البشري بوصفهم إخوة في الإنسانية رغم تباين أديانهم واختلاف أجناسهم، فقد قال في جريدة الشهاب سنة 1937 **«أنا كمسلم أدين بالأخوة الإنسانية وأحترمها في جميع أجناسها وأديانها وأسعى إلى التقريب بين جميع عناصرها»**[21]. وذلك تأسيا بالإسلام الذي أرسى مبادئ التسامح والسلم، وحدد بجلاء أسس التعامل مع الآخر ورسم طرق الحوار معه بإقراره مبدأ التعدد والاختلاف، ذلك أن **«الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به لأنه يدعو إلى الأخوة الإنسانية.. ويحمل على نشر الإحسان ويجرم الظلم، ويمجد العقل»**[22].

إن الإسلام يؤسس بامتياز للتفاعل الحضاري بين الشعوب والأمم، وهو ما يتجلى من خلال تأكيد رسالة القرآن علة ترسيم مبادئ التواصل والانفتاح، فلقد ركز الله عز وجل في مخاطبته لعبادة على التعرف والتقارب بين جميع

البشر منذ بدأ الخلق على اختلاف أديانهم وأجناسهم وانتماءاتهم، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[23]، فهو لم يستهدف شعبا بعنه، كما لم يستثن أمة من الأمم وإنما وجه رسالته إلى الإنسانية جمعاء، «فدعوة الإسلام هي ذات طابع شمولي وهي تتوجه إلى جميع الناس كبشر»[24]، وقد جعل لكل أمة معتقدها الخاص الذي تدين به، يقول تعالى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾[25].كما ويعترف الإسلام بحق الآخر الديني، الديني، يقول تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾[26] وغيرها من آي القرآن التي تعترف بوجود الآخر وتحترمه وتقر بمنهج التعدد والاختلاف.

ومن ثمة يقرعبد الحميد بن باديس بمبدأ الاختلاف ويوجب لكل دين من الأديان حق الاحترام ويدعوا إلى التسامح والتعايش السلمي بين الأديان ودليله في ذلك الإسلام الذي أقر للمخالفين أديانهم وأقر معابدهم وأكد ضرورة احترامها ومن أقواله المهمة في هذا الشأن: «الإسلام ربى المسلمين على التسامح، فهم لا يرون في اختلاف تلك الملل إلا شيئا قد قضاه الله واقتضته حكمته لعمارة هذه الدار وتلك الدار»[27].

لكن ما السبيل لأن ترتفع هذه الروح الإنسانية والسلم والتسامح ويتحقق هذا المطمح الإنساني النبيل؟

3. فلسفة المصير المشترك مع الذات ومع الآخر في فكر عبد الحميد بن باديس التربوي:

لئلا نفهم بأن التعايش والتسامح مع الآخر خضوع وإذلال للاستعمار يمضي عبد الحميد بن باديس إلى التأكيد بأن التفاهم والحوار والتسامح لا يعني بأي حال من الأحوال الذوبان والانصهار في الغير، بحيث يوضح بأن خدمة الإنسانية والنزوع إليها والاعتراف بالآخر مطالب لا تحقق إلا بالحفاظ على الخصوصية الإسلامية ومقوماتها الشخصية أولا وخدمة الجزائر كوطن وكملاذ ثانيا، وهو في ذلك يقول: «إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، ونحن من يحبه، نحب من يحبها ويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها، وبالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه، فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري ونخلص لكل من يخلص إليه»[28]، واحترازا من ألا يفهم قصده على النحو المطلوب يقول: «إننا نفرق جيدا بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها، نوالي تلك ونؤيدها»[29].

ولأن «الدين كله انقياد لله وإخلاص له ولذلك سمي إسلاما»[30]، كان عبد الحميد بن باديس «يرى دوما أن خدمة الجزائر مرتبطة أساسا بخدمة العقيدة الإسلامية التي جاءت للبشرية جمعاء، ومن ثمة كانت حركته الإصلاحية خدمة للإسلام وللجزائر بل وللإنسانية جمعاء»[31] وهو يتوجه في هذا الإطار إلى كل فرد من أبناء بلده الجزائر بأن يكون الواجب نحو الوطن

على رأس أولوياته بقوله: «كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر وخصوصا إبن جلدتك»[32].

وبهذه الرؤية القوية في منهجية التواصل يؤسس المفكر عبد الحميد بن باديس لفلسفة المصير المشترك مع الذات ومع الآخر، فهو إذ يؤكد على ضرورة التلاحم بين الجزائريين في طرحه الوطني، يهتم أيضا بالبعد العربي والإسلامي في توجهه الفكري، ولقد «أبدى طوال حياته استجابة فكرية وروحية غير عادية لكل ذي صلة بقضايا عالمه العربي والإسلامي ولم تأخذه أبدا بلاده وشعبه من أمته، بل اتسع قلبه الكبير للجميع»[33]، ولذلك يقول في جرأة ورباطة جأش: «نحن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطان أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ونحن نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد وأن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص»[34]. وقضايا المغرب العربي لم تكن غائبة عن فكره وقد اتخذت أولوية خاصة ضمن قائمة اهتماماته، بحيث يقول: «وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى.. ثم الوطن العربي والإسلامي ثم وطن الإنسانية العام، ولا نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلها إلا إذا خدمنا الجزائر»[35].

وقد تصدرت القضية الفلسطينية اهتمامه وشكلت مطلبا أساسيا في خطابه الفكري والسياسي، فرافع عن شرعيتها ووقف إلى جانب الشعب الفلسطيني موقف المؤيد المناصر، وحرص على الدفاع عن حقوقه على الرغم من الأحوال الصعبة التي كانت

تمر بالجزائر وقتئذ على أيدي المستعمر الفرنسي، وأرسل برقيات الاحتجاج إلى وزارة الخارجية الفرنسية لفضح مكامن المخططات الصهيونية البغيضة ولفت الأنظار نحو المخطط اليهودي الماكر[36].

لقد كتب قائد النهضة الجزائرية ورائد إصلاحها الديني والاجتماعي والثقافي العلامة عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- في افتتاحية مجلته الشهاب الصادرة في سنة 1357هـ الموافق لسنة 1938 يقول: «رحاب القدس الشريف مثل رحاب مكة والمدينة، وقد قال الله في الآية الأولى من سورة الإسراء ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء، 1) ليعرفنا بفضل تلك الرحاب، فكل ما هو واقع بها، كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة»[37]، ونظرا لهذه المكانة المرموقة والقيمة العليا لبيت المقدس في قلوب المسلمين وفي هويتهم الدينية والتاريخية ومخيالهم الديني والاجتماعي، لم يأل عبد الحميد بن باديس جهدا في جمع وحشد القوى والطاقات تحت راية واحدة للذود عن القضية الفلسطينية والدفاع عن حقوقها ومقدساتها الدينية، باعتبارها قضية العرب والمسلمين الأولى، ولمواجهة التهديدات والأخطار المحدقة بالأمة[38]، وكان هدفه الرئيس توحيد الصف الإسلامي والنهوض بالأمة الإسلامية والحفاظ على مقدساتها ومقدراتها.

لقد أدرك الشيخ عبد الحميد بن باديس أن «الدين قوة عظيمة لا يستهان بها»[39]، ولذلك كان

يدعو إلى الحواروالتسامح بين الديانات والتعايش والتقارب بين الثقافات «موضحا مدى حاجة المسلمين إلى الاتحاد وأن الإسلام يأمر أتباعه بأن يهتموا بالبشرية جمعاء دون النظر إلى دين أو جنس بعينه»[40]. ولذلك كتب عام 1936 يقول: «نهضتنا نهضة بنيت على الدين أركانها، فكانت سلاما على البشرية –لا يخشاها والله- النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، بل ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته»[41] ومن ثمة اعتمد مبادئ التسامح والعفو سبيلا لحقن دماء المسلمين ولم شملهم وصون أمنهم وإحلال التعايش السلمي مع الآخر المخالف لهم.

مقومات السلم والتسامح في منظور ابن باديس:

لقد ركز عبد الحميد بن باديس منذ بداية دعوته على إعطاء جملة من النصائح للجزائريين والمسلمين بصفة عامة، وهي وصايا متعددة الأهداف لخدمة وترقية الأمة الجزائرية والإسلامية، وتكون بمثابة الدستور الحقيقي الجامع للجزائريين، وهي جامعة وشاملة في مضمونها قضايا الفرد الجزائري[42]، وعالجت مشاكل وانشغالات الأمة العربية والإسلامية، لتحمل حلولا للكثير من قضايانا الراهنة ومشاكلنا المعقدة، وتثبت أن الإسلام دين سلم وتسامح وتعايش وبعيد كل البعد عن التهم الملصقة به من تطرف وانغلاق وإرهاب.

لقد آمن العلامة عبد الحميد بن باديس بأهمية السلم والتسامح ودورهما الكبير في خدمة الجزائر ونصرة الأمة الإسلامية والنهوض بالإنسانية جمعاء، ولذلك قال في التقرير السنوي عن الأهالي الجزائريين عام 1937 «تحية لكم يا أبناء العقيدة الإسلامية، إن نهضتنا ترتكز على الإسلام»[43] وقال أيضا في جريدة المنتقد سنة 1925 «نحن قوم مسلمون جزائريين نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنساني ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر، وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا»[44] ولذلك وجه جهوده الإصلاحية والتربوية لنشر ثقافة السلم المدني وتأصيل مقوماتها ومقاصدها في ترشيد حياة الأفراد ومواجهة التعصب الديني والتصدي لظاهرة ازدراء الأديان، وسعى إلى تحقيق هذه الغايات بوضع جملة من القواعد الدينية والقيم الأخلاقية لتنظيم العلاقة مع الآخر بطريقة سلمية وهي:

- حرية المعتقد والإقرار بالتعددية الدينية: يرى ابن باديس أن حرية التدين والاعتراف بالآخر وقبوله والتسامح إزاء المخالفين في العقائد والمذاهب هي قيم من صميم الإسلام ومن المشاهد الكثيرة في هذا السياق ما يذكره التاريخ الإسلامي من تعايش الأديان، وهو يقول في هذا الصدد: «عاش النصارى واليهود والمجوس في الشرق والغرب في حجر المسلمين وتحت سلطانهم قرونا طويلا فما أكرهوا على الإسلام، ولا نصب لهم

ديوان تفتيش.. ولا اقتيدوا للموت في سبيل الإسلام.. ولا منعوا من قراءة دينهم ولغتهم بوجوه المنع ولا أخذت أموال بيعهم وكنائسهم وتركت تعيش بالتقتيروالاستعداء.. ولا تعرض للطعن والتشهير بأديانهم ولا خصوا بأحكام استثنائية في قانون العمل العام، بل كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، يبلغون من العلم والجاه والثروة تحت لواء الدين الإسلامي»[45].

الاعتراف بالحقوق الدينية: يدعو عبد الحميد بن باديس إلى حماية المقدسات الدينية واحترام الرموز والأيقونات الدينية، ولذلك «اعتبر أن أرض فلسطين كلها ملكًا عامًا ووقفًا لجميع المسلمين في الأرض»[46] ونظر إليها كمنجز حضاري وكمشترك ديني وإنساني ينبغي صونه والمحافظة عليه، كما يدعو من جهة أخرى إلى إيفاء غير المسلمين سائر حقوقهم الدينية، وعلى رأسها ممارسة الشعائر والطقوس بكل حرية، وهو يقول في هذا الإطار: «نحن كمسلمين لا يضيق صدرنا بأن نرى أهل كل دين يختلفون بطقوس دينهم ويظهرون تمسكهم بعقيدتهم ويدعون إليه بكل وجه نزيه، بل نود أن يقع التفاهم على نشر أصول الخير والإحسان التي تتفق عليها جميع الملل»[47].

وتوفير هكذا شروط كفيل في رأيه بنشر أصل الخير والإحسان التي تتفق عليها جميع الأديان وتحقيق الانسجام المجتمعي والتناغم الحضاري ومن ثمة بناء مجتمع منفتح ومتسامح، وذلك لأن تكافؤ الحقوق بين أتباع الديانات واحترام الهويات الدينية والكيانات الحضارية المتنوعة يؤدي إلى مد جسور

التفاهم والمحبة وإشاعة روح التسامح والسلام.

في هذا السياق، وعلى هذا الأساس، حرص الإسلام على تسوية الحقوق مجالا لتحقيق العدل، الانتماء والوحدة بين أفراد الأمة الإسلامية وأهل الديانات الأخرى، والتصدي لكافة مظاهر الانتهاكات التي قد تكون حائلا بين الإنسان وبين حقوقه المشروعة، حيث أن «الإسلام هو دين البشرية التي لا تسعد إلا به، لأنه يدعو إلى الأخوة الإنسانية، ويسوي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية، ويفرض العدل ولا يميز بين الأجناس إلا بالتقوى، ويحمل على نشر الإحسان، ويجرم الظلم، ويمجد العقل ويشرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال ويحرم الاستعباد»[48]. وعلى العكس من ذلك فإن منع الأفراد من ممارسة حقوقهم الدينية والتعدي على حرياتهم الأساسية يسهم بقسط وافر في إشعال فتيل النزاعات والحروب ويزيد من حشد صور التعصب والتطرف، كما يؤدي العنف ضد الرموز الدينية والمس بالمقدسات الدينية وانتهاك حرمتها إلى إثارة المشاعر الروحية واستفزاز المخزون الديني والنفسي للأفراد وبالتالي إذكاء مشاعر التعصب والكراهية، فما يحدث اليوم من تعدي على حرمة الأقصى لخير دليل على أن عدم حماية واحترام المقدسات الدينية إجهاض للتسامح وتقويض لعملية السلام.

احترام مبدأ الاختلاف: وقد خص مفكرنا هذا المبدأ بمقال كامل جاء تحت عنوان **«نظر للمسلمين إلى غير المسلمين، ونظر غيرهم إليهم»** يقول[49] فيه: لأجل أن يقتلع الإسلام جذر

الحقد الديني والتعصب على المخالف من قلوب أتباعه ويزرع فيها التسامح، عرفهم أن اختلاف الأمم وتباينهم في نحلهم هو بمشيئة الله، وما كانت مشيئته إلا حكمة وصوابا فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[50]، وناط بالأمة المسلمة، حاملة الرسالة الخاتمة الشهادة على الناس وأهلها لذلك لما تمتلك من الخطاب الإلهي السليم والبيان النبوي المعصوم، اللذين يمنحان الخصائص التي تؤهل إلى انتهاج الاعتدال والاتزان في تطبيق الأمور العقدية والتحلي بالرفق والإنصاف في تبليغ الرسالة بالحسنى وإلحاق الرحمة بالعالمين[51]، انطلاقا من روح الوسطية المستمدة من القرآن الكريم قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[52]، وهو يحث على ضرورة الابتعاد عن التعصب الجنسي الممقوت الذي يشتت الأمم ويهوي بها إلى الدرك الأسفل من الهمجية والانحطاط، ليخلص عبد الحميد بن باديس إلى موقف عام وأساسي وهو أن الإسلام منهج حقوق ودين سلام تعامل مع الآخر المختلف على سنن التسامح والاحترام وكان سلاما على مخالفيه.

تبني ثقافة العيش المشترك: يدعو عبد الحميد بن باديس إلى فهم الآخر الحضاري وذلك بالإصغاء إلى مطالبه الحقوقية كالحق في الحرية وهي عقيدة وطنية اعتمدها في مشروعه الإصلاحي، والحق في الاعتقاد وحق التعبير، فالديانات والحضارات المختلفة لا يمكنها أن تشترك في تاريخ واحد أو تتعايش ضمن نسق

حضاري واحد إلا إذا تواجدت ضمن حدود وعي يستوعب خصوصيتها الدينية والقيمية ويحترم فرادتها الحضارية والتي تشكل قاعدة لكل تواصل حضاري، إذ لا يمكن التعايش والانسجام مع من لا نعترف لهم أصلا أو نقر لهم بالوجود والاشتراك في القيم الإنسانية كالحياة والكرامة وحقوق السلم والأمن وحقوق السلم والأمن وحرمة الدم والمقدسات.

اعتماد أسلوب الحوار: يرى عبد الحميد بن باديس أن الإنصات إلى الآخر والدخول في حوار معه هو أحد المقومات الرئيسة لتحقيق السلام والتفاهم وإنتاج مقولات مشتركة للتعايش والفهم الجمعي وضمان الاشتراك التواصلي مع الغير، ومن أخلاقيات الحوار وجود احترام متبادل وخطاب مفهوم يتأسس على اللين والرفق والتسامح وهو ما دعانا إليه الإسلام قرآنا وسنة، حيث أنه «يأمر بحسن التخاطب العام فيقول ((وقولوا للناس حسنا))»[53]. ولذلك يرى ابن باديس ان «اللسان أداة البيان وترجمان القلب والوجدان فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره، وأممه، وبريد عقله وواسطة تفاهمه. فإذا حسن قويت روابطة الألفة وتكنت أسباب المحبة، وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم، وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم وتشابكت الأيدي على التعاون والتآزر، وجنى العالم من وراء ذلك تقرر «استتقرار» الأمن واطراد العمران، وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك فالكلام السيئ قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة»[54]، ولكن هل توقفت جهود عبد الحميد بن باديس في

السلم والتسامح عند مستوى التنظير أم تعدته إلى الممارسة العلمية؟

عبد الحميد بن باديس المفكر المصلح المتسامح:

لقد سعى عبد الحميد بن باديس من خلال منهجه التربوي والإصلاحي إلى زرع المحبة بين أفراد المجتمع البشري بوصفهم إخوة في الإنسانية بجميع أجناسها وأديانها ووصف نفسه بأنه زارع محبة لكنه وضع لذلك شروطا وأحكاما فقال **«أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان ومن كل جنس ومن كل دين فاعملوا للأخوة ولكن من يعمل للأخوة فبذلك تكون الأخوة صادقة»**[55] ولذلك يدعو كل مسلم إلى تبني هذا السلوك ونبذ التعصب والكره الذي يفضي إلى الفرقة والعنف. يقول في هذا السياق متوجها إلى الشعب الجزائري: **«كن كذلك ضد كل متعصب ضد أي جنس وأي دين، كن متحدا فبالاتحاد فقط تبلغ غايتك الشريفة الإنسانية كن مستيقظا منظما لتبرهن على أنك شعب لا يريد إلا العيش والحرية والسلام وارفع عقيدتك بالاحتجاج ضد جميع الذين يستعملون العنف والقسوة»**[56].

وللإمام ابن باديس رحمه الله سجل حافل وتاريخ زخر بهذه المعاني الإسلامية السامية، فقد توافرت في شخصه صفات العالم العامل الذي يخاطب عقول المسلمين وقلوبهم صائغا إليهم هذا الدين في أحسن صورة لذلك كان

موضع سخط السلطات الاستعمارية وأعوانها، والتي أوعزت -بتنسيق من إحدى الجماعات الصوفية المعادية لابن باديس ومواقفه- إلى نفر من أتباعهما باغتيال الشيخ، غير أن المعتدي الذي هم بهذه المهمة لم يفلح في تنفيذها ووقع في قبضة أعوان الشيخ وكانوا قادرين على الفتك به إلى أن أخلاق الإمام العالمية جعلته يعف ويعفوا ويسامح متمثلا قول النبي صلى الله عليه وسلم **«رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**[57].

لقد أعطى عبد الحميد بن باديس فهما جديدا للدين الإسلامي وكان يسعى إلى الحواربين الديانات والتقارب بين الحضارات وتعاون الأجناس امتثالا لدينه الحنيف ولم تبق مواقفه مجرد رؤى نظرية وإنما تجسدت فعليا على أرض الواقع، فقد انتقد الأوروبيين الذين لا يتعاملون بالمثل مع الدين الإسلامي ويحترمون المسلمين وبعث رسالة إلى وزير الخارجية فرنسا والمقيم العام في المغرب ليحتج على منع مسلمي مراكش من إقامة احتفالات بمناسبة المولد النبوي الشريف، كما احتج على المؤتمر المسيحي الأفخاريستي المنعقد في تونس في عام 1930 والذي عقد للاحتفال بقرطاج عاصمة تاريخية للمسيحية والذي كانت له توجهات سياسية إقصائية وعنصرية واعتبر تنظيم هذا المؤتمر استفزازا لمشاعر المسلمين[58].

كما دخل في سجال طويل مع مثقف فرنسي يدعى أشيل روبر بين له ابن باديس أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة التي كرست حرية الإيمان

والتدين ولم تجبر من كان تحت حكم بالتخلي عن ثقافته ودينه ولغته[59]، وبمناسبة زيارة رئيس الوزراء الفرنسي إلى الجزائر في بداية سنة 1939 وجه له ابن باديس رسالة من أهم مضامينها: **«إن الجزائر المسلمة تنتظر منكم حرية دينها ولغتها، حرية المساجد لتعليم الكبار، وحرية المدارس لتع ليم الصغار..»**[60] ولئن كان الشيخ ابن باديس في كثير من مواقفه لينا من غير ضعف، فهو في الحق صارم وحين تخور الفرائم، فهو شجاع شجاعة من لا يخاف في الله لومة لائم[61]، وقد عبر عن الكثير من الكثير من أفكاره ميدانيا ووجه جهوده الإصلاحية والتربوية لحل الإشكاليات العالقة واستشراف المستقبل الحضاري للأمة.

الخاتمة:

إن ما قدمه ابن باديس من مواقف وآراء يمثل مساهمة ثرية ونوعية، فالتسامح **«يعد اليوم مقوما من مقومات الحداثة السياسية والاجتماعية لقدرته على حل الإشكالات الناتجة عن التعددية داخل المجتمع الواحد وبين المجتمعات، فهو البديل العادل للتعصب ورفض حق الآخر في الاختلاف، والسبيل الوحيد إلى تعايش سلمي قائم على الاستواء في الحقوق بين مختلف مكونات المجتمع»**[62]، ولئن يتبجح الغرب في ريادته في نشر هذه الثقافة، فإن جهود ابن باديس لا تقل أبدا عن جهود فلاسفة التسامح،الغربيين من أمثال جون لوك وفولتير وجون ستوارت مل، فهو بفكره السابق لعصره يرسخ قيم السلم والتسامح كمطلب استراتيجي للتبادل الحضاري بين الأديان والحضارات على تمايزها، كما يؤسس بامتياز للتفاعل الحضاري في رصده لعلاقة الأنا بالآخر وتقويم علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم ونبذ دعاوى الصدام والصراع لبناء منظومة راقية من العلاقات الحضارية، ومن ثمة ينبغي التعريف بفكره وتجربته على نطاق واسع في الجزائر وعلى الصعيد العالمي، فعلى الرغم من أن ثمة ثلة من الدكاترة والأستاذة المتخصصين في فكره مثل: مولود عويمر ومسعود فلوسي إلا أن الفكر الباديسي ما زال بعيدا عن الدرس الأكاديمي الجزائري، ففي الوقت الذي يدرس في مقررات العديد من الجامعات العربية وعلى رأسها دول الخليج، كأهم الشخصيات الفكرية العربية الفاعلة في مجال

السلم والإصلاح والتربية وغيرها، فإنه لم يأخذ حصته من الاعتماد والتمثل في بلده الجزائر، وما زال منتوجه الفكري بحاجة إلى المزيد من التحليل والدراسة للاستفادة من فكره في تأصيل عديد المباحث والقضايا وتجديدها.

لا يكفينا إضمار التقدير والتناجي به بل ينبغي أن نستثمر فكره المعتدل الوسطي راهنا ونستفيد من أذكاره الاستشرافية للمستقبل، فهو نموذج يجب أن يحتذى به لمواجهة التطرف والإرهاب وحل المشاكل السياسية والخلافات الإثنية والمذهبية التي تشهدها المنطقة العربية للولوج إلى عالم متسامح مطمئن ومزدهر.

الهوامش:

1 - لقد اكتسب مفهوم التسامح معان عدة وتجسد بصور متنوعة عبر اختلاف أشكال الوعي الإنساني، فلم يعد مقتصرا على الجانب الطائفي والديني، بل امتد ليشمل الجانب السياسي والاجتماعي والحقوقي، ونظرا لسعة تداوله وتعدد الأبعاد الدالة عليه، انبرى العديد من الفلاسفة والمفكرين إلى معالجة القضايا والمسائل المتعلقة به، فكانت الفلسفة من أكثر الميادين المعرفية التي عالجت هذا المفهوم وعملت على ترسيخه كقيمة إنسانية عليا.

2 - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر، الشركة الوطنية، د. ط، ص287.

3 - محمد بن محفوظ بن المختار فال الشنقيطي، جواهر الدرر في نظم مبادئ أصول ابن باديس الأبر، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2005، ص16

4 - مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، قطر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1997، ص13.

5 - محمد بن محفوظ بن المختار فال الشنقيطي، جوهر الدرر في نظم مبادئ أصول، ابن باديس الأبر، مرجع سابق، ص14.

6 - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصطلاحي في الجزائر، الجزائر،

المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985،ص129.

7 - الإمام العلامة عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب وإعداد وتعليق محمد الصالح رمضان، توفيق محمد شاهين، بيروت، دار الفكر، ط2، ص309.

8 - المرجع نفسه، ص285.

9 - ص 3 الإمام العلامة عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير 39، 40.

10 - المرجع نفسه، ص227.

11 - المرجع نفسه، ص11.

12 - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، مرجع سابق، ص242.

13 - با عزيز بن عمر، عظمة الأستاذ الأكبر عبد الحميد بن باديس، البصائر، ع 24، 3 ماي 1948.

14 - تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس: باحث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، الجزائر، موفم للنشر، 2003، ص73.

15 - مولود عويمر، المصلح الثائر الإمام عبد الحميد بن باديس -1889 1940، في مجلة المجتمع، الكويت، العدد 1453، 2001، ص44.

16 - فهمي توفيق محمد مقبل، عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح

والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث (1307 - 1940م)، مرجع سابق، ص23.

17 - آثار الإمام عبد الحميد بن بادبس، متفرقات، الجزائر، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ج4، ص110 .

18 - المرجع نفسه، ص ص 110، 112.

19 - المرجع نفسه، ص110.

20 - عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، الجزائر، موقع الإمام عبد الحميد بن باديس ()، 2006، ص07.

21 - عبد الحميد بن باديس، جريدة الشهاب، الجزائر، الجزء:5 / المجلد13، 1937.

22 - أحمد مريوش،أضواء على إسهامات العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس في النهضة الجزائرية الحديثة، في مجلة التربية والإبستمولوجيا، الجزائر، مخبر التربية والإبستمولوجيا، العدد الأول، 2011،ص137.

23 - سورة الحجرات الآية 13.

24 - فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، تر: جميل قاسم، بيروت، مركز إنماء القومي للبحث والدراسات، 1993، ص71.

25 - سورة المائدة، الآية 50.

26 - سورة الكافرون، الآية 06.

27 - ابن باديس، حياته وأثاره،

إعداد عمار طالبي، سوريا، دار اليقظة العربية، ط1، 1968، الجزء الثالث، ص490.

28 - أثار الإمام عبد الحميد بن باديس، متفرقات، الجزائر، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ج5، ص173.

29 - محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1980، ص53.

30 - عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مرجع سابق، ص11.

31 - أحمد مريوش، أضواء على إسهامات العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص137.

32 - آثار الإسلام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج4، ص44.

33 - يوسف جمعة سلامة، الإمام ابن باديس والقضايا الإسلامية ضمن أعمال الملتقى الدولي: الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزائر، مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، 2012، ص03.

34 - أحمد مريوش، دراسة النزعة العقلانية والوطنية في منظومة ابن باديس الإصلاحية، في مجلة المصادر، الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 54، العدد 07، نوفمبر 2002، ص102.

35 - عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، الجزء10، المجلد 12، جانفي 1937.

36 - يوسف جمعة سلامة، الإمام بن باديس والقضايا الإسلامية، مرجع سابق، ص 02.

37 - المرجع نفسه، ص03.

38 - يوسف جمعة سلامة، الإمام ابن باديس والقضايا الإسلامية، مرجع سابق، ص ص 2،3.

39 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مرجع سابق، ص172.

40 - مازن صلاح مطيقاني، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دمشق، دار القلم، ط2، 1999، ص167.

41 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص204.

42 - أحمد مريوش، أضواء على إسهامات العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص147.

43 - مازن صلاح مطبقاني، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مرجع سابق، ص ص 167، 168.

44 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج5، ص172.

45 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج5، ص ص 43، 44.

46 - يوسف جمعة سلامة، الإمام ابن باديس والقضايا الإسلامية، مرجع سابق، ص01.

47 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج6، ص321.

48 - ابن باديس، حياته وآثاره، إعداد وتصنيف عمار طالبي، ج1، مرجع سابق، ص131.

49 - ابن باديس، حياته وآثاره، إعداد وتصنيف عمار طالبي، ج3، مرجع سابق، ص488.

50 - سورة النحل، الآية 93.

51 - مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، كتاب الأمة سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، مركز البحوث والدراسات، 1997، ص 09.

52 - سورة البقرة، الآية 142.

53 - آثار ابن باديس، ج4، مرجع سابق، ص112.

54 - ابن باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف عمار طالبي، مرجع سابق، ج1، ص282.

55 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مرجع سابق، ص215.

56 - ابن باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف عمار طالبي، ج3، مرجع سايق، ص120.

57 - مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مرجع سابق، ص ص 126، 127.

58 - أنظر: مولود عويمر، فكرة الحرية عند الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق.

59 - علي محمد الصلابي كفاح الشعب الجزائري 2: سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، لبنان، دار المعرفة اللطباعة والنشر، ص 679.

60 - المرجع نفسه، ص683.

61 - مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مرجع سابق، ص127.

62 - ناجية الوريمي، في مفهوم التسامح، الخلف المغرب، مؤمنون بلا حدود، قسم الدراسات الدينية، 2016، ص04.

خطبة عيد الفطر 1439 - 2018

مسعود مياد
إمام - المسجد الكبير - الجزائر العاصمة

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا

نحمدك ربي ونستغفرك من جميع الذنوب والخطايا ونتوب إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،ونشهد أن لا إله إلا أنت ، فأنت أحق من عبد، وأجل من ذكر، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأكرم من أعطى، وأرحم من ملك، القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرعت، والأمر أمرك ، والخلق خلقك، والعبد عبدك، وأنت الله الرؤوف الرحيم

ونشهد أن محمدا عبدك ونبيك ورسولك ، فتحت به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

الله أكبر ما أعز جنابه

وأجل رفعته على كل الورى

ولقد أقول إذا الكواكب أشرقت

وترفعت في منتهى شرف الذرى

لا تفخري زهوا فإن محمدا

أعلى علا منها وأشرف جوهرا

أحيى الإله ببعثه سنن الهدى

وأعاد من عهد النبوة أعصرا

فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الله أكبر عدد ما صام الصائمون وأفطروا، الله أكبر عدد ما صلوا التراويح وتهجدوا

الله أكبر عدد ما قرؤوا القرآن ورتلوا ، الله أكبرعدد ما جادوا بالخير وتصدقوا

الله أكبر عدد ما دعوا ربهم وتضرعوا.

لله أكبر، الله أكبر، الله أكبر

قال تعالى:﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[البقرة: 184].

معاشر المسلمين والمسلمات، من أعظم نعم الله على عباده، أن يوفقهم لعبادته ،ويعينهم على طاعته، ويقدرهم على الامتثال لأوامره ،وصد ق الله القائل: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: 88] ، وها نحن. إخوة الإيمان. أكملنا عدة رمضان بعون الله ومنته،فهو الذي أعاننا وقدرنا، ويسر وسهل صيامنا، وهاهي جموع المسلمين في مشارق

الأرض ومغاربها تلهج ألسنتهم بذكر الله تكبيرا وتسبيحا وتهليلا، شاكرين الله عز وجل على توفيقه وعونه، ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 184] فبعد إكمال العدة ،و شكر الله عز وجل بالذكر،تكبيرا وتسبيحا وتهليلا، حق لكل مسلم ومسلمة أن يفرح ويبتهج ، فقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**للصائم فرحتان، إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه**»[1] ، فشُرع لنا يوم عيد الفطر مباشرة بعد رمضان، ليكون يوم فرح على إكمال العدة وأداء العبادة، وشُرع لنا يوم عيد الأضحى مباشرة بعد عرفات، ليكون كذلك يوم فرح على إتمام المناسك وأداء النسك ، وربنا يقول في القرآن الكريم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] ،

فالعيد شعيرة ربانية يظهر فيه المؤمن فرحه وابتهاجه وسروره في الدنيا ، وأما فرحة الآخرة فهيهات هيهات أن يصفها لسان ويدركها جنان ، وأنّا له ذلك وربنا يقول في الحديث القدسي « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[2] فما أخفى الله عنا مقدار الأجر والثواب إلا لأنه أجر عظيم وثواب

1 - أخرجه البخاري (1904)، ومسلم (1151)، والترمذي (764)، وابن ماجه (1638)، وأحمد (7693) باختلاف يسير، والنسائي (2216) .

2 - صحيح البخاري: (6/ 2723)(7054)، صحيح مسلم: (2/ 806)(1151).

جزيل ،والخوف من الحرمان من هذا الأجر والثواب جعل قلوب العابدين المقربين بعد كل عبادة ، خائفة وجلة ، من أن ترد عباداتهم ولا تقبل ، فيحرموا من الفرحة الكبرى في الآخرة ، فعن عائشة قالت « قلت يا رسول الله **(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)** أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر قال لا يا بنت أبي بكر أو يا بنت الصديق ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يتقبل منه» [3].

وكذلك ينبغي أن تكون قلوبنا خائفة وجلة مع حسن الظن بربنا، سائلين منه قبول صيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا ، فقد كان سلفنا يسالون الله ستة أشهر كاملة أن يتقبل منه رمضان ويسألونه في الستة الأخرى أن يبلغهم إياه .

فهنيئا لمن قبل صيامهم مغفرة الذنوب والآثام، مصداقا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» [4]

وهنيئا لهم شفاعة الصيام والقرآن، مصداقا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة» [5]

3 - أخرجه الترمذي (3175)، وابن ماجه (4198) واللفظ له، وأحمد (25705).

4 - أخرجه البخاري (37)، ومسلم (759) مختصراً، وأبو داود (1372)، والترمذي (683) باختلاف يسير، والنسائي (2206)، وأحمد (9445) واللفظ لهما، وابن ماجه (1641) مختصرا باختلاف يسير.

5 - أخرجه أحمد (6626) واللفظ له، والطبراني (14/72) (14672)، والحاكم (2036) باختلاف يسير.

وهنيئا لهم العتق من النيران، مصداقا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم « ولله عتقاء من النار وذلك في كل ليلة ...»[6]

وهنيئا لهم الجنة من باب الريان، مصداقا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون.....»[7]

وهنيئا لهم ثواب ألف شهر في الميزان، مصداقا لقول ربنا: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : 3].

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ..

فلنعلم إخوة الإيمان أنه مما ينبغي علينا فعلُه بعد كل عبادة وطاعة وقربة ، أن نحافظ على حسناتنا ونحرسها ، ذلك أنه مما يُذهب حسنات صيامنا وقيامنا وطاعاتنا ، سوء معاملاتنا لبعضنا البعض وسوء الأخلاق والإفساد في الأرض ، وكلنا يعلم حديث المفلس الذي يَذهب الناس يوم القيامة بحسناته ، لأنه كان معتديا عليهم آخذا لحقوقهم[8] ،

ذلك أن الأصل في الإنسان المسلم أن يسلمه الناس كلهم ويأمنوه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بالمؤمن؟

6 - أخرجه الترمذي (682)، وابن ماجه (1642) واللفظ له.

7- رواه البخاري (1896)، ومسلم (1152) واللفظ له.

8- والحديث رواه مسلم (2581)، ورواه الترمذي (2418). وقال: هذا حديث حسن صحيح.

من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم و المسلم من سلم الناس من لسانه ويده» [9] ذلك أنا ديننا دين سلام ومحبة ووئام مع الخلائق كلها، يقول ابن باديس رحمه الله تعالى

« إن حضارتنا بنيت على الدين فكانت سلاما على البشرية ، لا يخشاها اليهودي ليهوديته ولا النصراني لنصرانيته ولا حتى المجوسي لمجوسيته، وإنما يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته».

9 - رواه ابن ماجه (3193)، أحمد (6 /21) (24004)، وابن حبان (11 /203) (4862). قال البوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (2 /268): إسناده صحيح، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (3 /271): رجاله ثقات، وصحح إسناده ابن حجر في ((مختصر البزار)) (1 /464)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)).

وإن من أعظم نعم الله علينا أن نعيش في بلدنا في أمن وأمان وسلم وسلام، في زمن كثرت فيه الحروب والفتن ، ودمرت فيه القرى والمدن ، بعد أن استطعنا بعون الله أن نفوت الفرصة على من أراد أن يبدل أمننا خوفا ،وسلمنا حربا، ووحدتنا فرقة، وأخوتنا عداوة .وهاهي الجزائر تصبح قبلة لكثير من الأئمة من الدول الغربية وغيرها، ليستفيدوا من تجربتها الرائدة في المصالحة الوطنية وبث الأمن والأمان في ربوعها، وفي محاربة الغلو والتطرف، ليس هذا فحسب بل أصبحت الجزائر مدرسة تعلم الناس السلام وتدعوهم للعيش معا بسلام، واستطاعت أن ترسم في هيئة الأمم المتحدة يوم 16 من ماي ليكون يوما للعيش معا بسلام .مهتدية بقول الله تعالى:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال: 62]

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ..

في الوقت الذي ننادي فيه وأحرار العالم إلى السلام ، وإلى العيش معا في سلام ، نجد من يريد أن يغتصب مدينة السلام ، مدينة القدس ، محاولا طمس هويتها وتاريخها وتغيير حقيقتها وانتهاك حقوق أهلها، وتسليمها للسفاحين ليقتلوا شعبها ويشردوا أهلها ويحاصروا أصوارها، هنالك حيث نجد شعبا يريد أن يذكر العالم أجمع بحقة في العودة إلى أرضه المغصوبة والمنهوبة ، يريد أن يذكر العالم بعدالة قضيته وبحقه في أن يعيش في أرضه ووطنه بأمن وسلام ، ولكنه يصطدم بلامبالاة دولية، وبإعراض أممي وبانكفاء الأخ والصديق، إنه شعب فلسطين الأبي.

شعب يصادر حقه في عودته إلى وطنه الأم.

ويصادر حقه التاريخي في اتخاذ القدس عاصمة لدولته .

ويصادر حقه الشرعي في أن يتفاوض مع مستعمر أرضه ومغتصبها في إطار اللوائح الأممية والقانون الدولي، بل ويستفز بقرارات غير متزنة، ومبادرات غير عاقلة، ومغامرات غير محمودة العواقب عندما يسلب حقه ويعطى لغريمه، نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة، لأن ما يجمعنا بها جعلنا نؤمن بعدالة قضية شعبها، ونهتم بها ونقف معها، هي تلك الروابط القوية والمتينة التي تربطنا بها .

أولها وأقواها وأمتنها رابط العقيدة والدين، فهي أرض الرسالات والنبوات، وهي مسرى حبيبنا صلى الله عليه وسلم، وهي أرض المسجد الأقصى ، أولى القبلتين وثاني المسجدين .

وثانيها رابط الأرض ..فهنالك أوقاف سيدي أبي مدين الغوث. وحارة المغاربة وقرية إيوان وقرية عين كارم في القدس الغربية المحتلة، تلك الأوقاف التي هي من أكبر وأكثر الأوقاف في تلك الأرض المباركة ، والتي أوقفها سيدي أبو مدين الغوث وجاء في وثيقة وقفها الموجودة في جامعة أكسفورد «أن قرية عين كارم أوقفها بأموالها ومياهها وأبارها وسواقيها وسهلها و وعرها ومبانيها وقفا لله، يصرف للسابلة من المغاربة المارين والمنقطعين للعلم والجهاد ومن بدل او غير فالله حسيبه ومن بدل أو غير فلعنة الله عليه والملائكة والناس أجمعين» اللهم آمين

وثالث رابط هو رابط الدم والعرق ، فإن هناك من المقدسيين والفلسطينين من هم من دمنا،بعض منهم رحل مع أبي مدين الغوث في القرن العاشر ميلادي، وجاهدوا مع صلاح الدين وحرروا المسجد الأقصى ، وبعض منهم رحل أيام سقوط الأندلس في القرن 15 ميلادي فرارا من محاكم التفتيش، وبعض منهم رحل مع الأمير عبد القادر في القرن 19 ميلادي

ورابع رابط هو رابط نوعية الاحتلال والاستعمار، فلا يوجد احتلال يشبه احتلال الصهاينة، إلا

احتلال المستدمر الغاشم لأرضنا، فلا أحد يعرف مرارته وظلمه وبطشه مثلما نعرفها نحن، وهذا ما جعلنا نقف مع فلسطين ونرافع من أجلها و من أجل كل القضايا العادلة في العلم ، من أجل تحرير الشعوب من مستعمراتها .وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم في قوله « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» [10]

الله اكبر الله اكبر الله اكبر

إخوة الإيمان إذا كنا ننعم بالأمن والأمان فهو بفضل الله أولا ثم بفضل حنكة وحكمة قادتنا التي جعلتنا موحدين ومتحدين هذه الوحدة التي أريد لها أن تنكسر وأن تزرع بذور الفرقة في أبناء الشعب الواحد من خلال أفكار نحلية وطائفية ومذهبية دخيلة.

بعضها يحتكر التدين والسنية واتباع الهدي النبوي .

وبعضها يشكك في ثوابت وقطعيات ديننا .

وبعضها يزدري القرآن والسنة النبوية المطهرة .

وبعضها يغذي التطرف والغلو ويدعو إلى العنف .

وبعضها يلعب على وتر العرقية والجهوية.

يريدونا أن نكون ممن فرقوا دينهم وكانوا شيعا.

وإن رسالة فخامة رئيس الجمهورية التي أبرق بها إلى علمائنا في ذكري يوم العلم لتدعونا إلى ضرورة الوقوف سدا منيعا أمام هذه الموجة من الأفكار التي لم يسلم منها بلد من

10 - رواه البخاري (6952).

البلدان، وإلى ضرورة العمل من أجل تحقيق الأمن الفكري .

لشبابنا وأمتنا ، حتى لا تعصف بها هذه الأفكار.

أحبكم يا شباب الحق محتسبا

....ولن يضيع ربي أجر محتسب

أدعو لكم بصلاح الأمر في زمن

...سواد ظلمته يطغى على الشهب

لا تفتحوا باب العقول لمن

....يدعو إلى اللهو والتهريج واللعب

ولعله مما يبعث على الارتياح ويطمئن الناس على تدينهم ودينهم، فلا خوف عليه ولا خوف منه ، أننا قد أرسينا أسسا ثابتة ، كفيلة بتحصين المجتمع من أي فكرة تزعزعه أو تفرقه أو تعصف به ، وهذا بفضل فخامة رئيس الجمهورية من خلال رعايته وعنايته بتلك الملتقيات الفكرية والفقهية التي تَدرس مثل هذه القضايا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية والمدارس الفقهية والفكرية، كالأسبوع الوطني للقرآن الكريم ، وملتقى الفقه المالكي.

ومن خلال جائزة الجزائر الدولية التي أصبح لها مكانتها وسمعتها في العلم أجمع ، وهاهو ممثل الجزائر فيها يفتك المرتبة الأولى بكل جدارة واستحقاق ، ليس هذا فحسب بل أصبح ممثلو الجزائر لا ينزلون عن المراتب الثلاثة الأولى.

في جل المنافسات الدولية التي تقام في عواصم الدنيا .

وهاهي معاهد تكوين الأئمة تنتشر في بلدنا ، ليتخرج منها أئمة أكفاء

ليأطروا بيوت الله عز وجل التي تشيد كل يوم

من أموال المحسنين. وهاهي ولاياتنا تزدان كل يوم بمساجد أقطاب جامعة، وبمدارس قرآنية نموذجية

وهاهو مسجد الجزائر وفخرها ، يعد الأيام من أجل أن يؤذن لمئذنته أن يرفع منها صوت الحق ...

وهاهم علماؤنا وأئمتنا يزينون قنواتنا التلفزيونية وإذاعاتنا الجهوية والوطنية ، يفتون الناس ويعظونهم ويعلمونهم، على وفق مرجعيتنا الدينية والوطنية .

ولعل كل هذا كفيل بأن نطمئن على ديننا وتديننا ، وأن هذه الأفكار الدخيلة إنما مصيرها إلى زوال ولن تجد لها موطأ .

قدم في بلدنا بحول الله وقوته ،

أقول قولي هذا واستغفر الله العلي العظيم فاستغفروه تجدوه غفورا رحيما

الخطبة الثانية

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر ..

الحمد لله الذي ألهم وأنعم وهدى للتي هي أقوم .

إخوة الإيمان ، لا يسعنا في هذا المقام وفي هذا اليوم الكريم الأغر، يوم العيد، إلا أن نُهنئ أمتنا قاطبة والشعب الجزائر

خاصة بهذا العيد المبارك، وأوصي نفسي وإخواني بالثبات على الطاعة والعبادة وفعل الخيرات والمسارعة

فيها، قال تعالى﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾

كما أوصي نفسي وإخواني بالتصافح والتسامح والعفو والتجاوز، فما أكثر العداوات والخصومات في زمننا هذا،

وهاهو العيد فرصة للم الشمل وإزالة الأحقاد والضغائن، تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى ...ولا سمع الواشي بذاك ولا درى

تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا ...وحتى كأن العهد لن يتغيرا

من اليوم تاريخ المحبة بيننا ...عفا الله عن ذاك العتاب الذي جرى

قال تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿22﴾ ﴾ [النور: 22].

الدعاء